PDF Compressor Pro

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي
جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ (١٤)
عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ
عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ
(١٨) لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ
(٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ
الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا
وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا ﴾ صدق الله العظيم

[من سورة الواقعة: ١٠-٢٦]

هؤلاء هم الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة المذكورة في قوله عز وجلّ فيما سبق ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً ﴾ وإنما أخرهم القرآن الكريم مع أنهم هم الجديرون بالتقديم، لسبقهم ومزيد فضلهم، ليقع ذكرهم مقرونًا ببيان حالهم وحسن مآلهم، فيكون أبلغ في إظهار كرامتهم وإدخال السرور عليهم. وقوله تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ السَّابِقُونَ ﴾ بعده، أي: السابقون هم الذين عرفت أحوالهم واشتهرت فضائلهم ومحاسن خصالهم على حد قوله: أنا أبو النجم وشعري شعري: أي: شعري هو ما

PDF Compressor Pro

تعهده وتسمع بفصاحته وبراعته. وقد اختلف العلماء في بيان المراد من السابقين في هذا الموضع على أقوال كثيرة، فقيل: هم الذين صلوا إلى القبلتين من أصحاب النبي ﷺ أخذاً من قوله تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ (التوبة: ١٠٠) الآية، وهذا قول محمد بن سيرين رضي الله عنه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم: «السابقون إلى الهجرة من مكة إلى المدينة»، وعنه أيضاً أنه قال: نزلت في حزقيل مؤمن آل فرعون وحبيب النجار الذي ذكر في سورة يس وعلي بن أبي طالب -كرّم الله وجهه- كل رجل منهم سابق أمته وعلي أفضلهم. وعن علي رضي الله عنه وكرم وجهه: هم السابقون إلى الصلوات الخمس. وقيل: هم السابقون إلى التوبة وأعمال البر، وقيل: هم الذي سبقوا إلى الإيمان والطاعة عند ظهور الحق من غير تلعثم ولا توان، وقيل غير ذلك. والظاهر - كما أشار له بعضهم، بل المتعين - حمل هذه الأقوال كلها على أنها لمجرد التمثيل، وأن المراد بالسابقين كل ذي همة وسبق ومسارعة إلى الخيرات من غير تردد ولا تلعثم وبدون فتور ولا توان في كل زمان ومكان من هذه الأمة المحمدية وغيرها من الأمم الماضية، وهذا هو المروي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث قالت: الفرقتان - أي :في قوله تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ في أمة كل نبي، في صدرها ثلة، وفي آخرها قليل. فالسابقون موجودون في كل أمة وكل عصر لا تخلو منهم الأرض طرفة عين وإن اختلف عددهم كثرة وقلة.

وليس المقصود من معنى السبق الذي وصفوا به السبق الحسي فقط حتى يكون قاصراً على نحو السبق إلى المسجد أو إلى الجهاد كما قد يتوهم؛ بل المقصود ما هو أعم، ولذلك قال ﷺ حين سئل عن السابقين:

PDF Compressor Pro

«هم الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سئلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم» فبين عليه الصلاة والسلام بهذا الحديث أن السبق الحسي غير متعين في الآية الكريمة، ولا هو مقصود بخصوصه، وقد أذكرنا هذا الحديث الشريف بقوله صلوات الله وسلامه عليه وقد رجعوا من بعض الغزوات: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، فسمى مخالفة النفس والشيطان جهاداً؛ بل جهاداً أكبر كما سمى هنا قبول الحق وبذله لأهله، وحكم الإنسان لغيره كحكمه لنفسه سبقًا؛ ليرينا أن كل ما أمر الله تعالى به ونهى عنه في شرعه الحكيم فهو ميدان للجهاد والسبق فعلاً وتركًا، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وحينئذ فاسم السبق ينتظم كل بطل عظيم الهمة، شريف النفس، نافذ الإرادة يحب الحق ويعمل بالحق ويدور مع الحق حيث دار، متى ظهر له الحق وتبين له الرشد اتبعه وسلك سبيله: لا يتردد ولا يتلعثم ولا يخور ولا يجبن ولا تأخذه في الحق لومة لائم. ومن التنويه بشأن السابقين قول الحق -جلَّ شأنه- في آية أخرى: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ (الحديد: ١٠) فقد فضل الذين سبقوا بالإنفاق والقتال، وبادروا ببذل أرواحهم وأموالهم في سبيل الله تعالى قبل فتح مكة المشرفة حيث المسلمون قليلو العَدد والعُدد، وقلوب المشركين تغلي بالحقد عليهم والاستخفاف بشأنهم، فبرهنوا بهذا العمل الجيد على شرف نفوسهم وشجاعة قلوبهم، وقوة يقينهم بما عند ربهم بخلاف الذين أنفقوا وقاتلوا بعد ذلك، فإنهم - وإن كانوا ممن وعدوا بالحسنى - إلا أنهم أقل من السابقين فضلاً وأدنى منهم مرتبة كما قيل:

ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا   بكاها فقلت الفضل للمتقدم

وفي الحديث الشريف: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير» والمؤمن القوي هو الشهم المقدام، قوي القلب الذي لا يتعصب للباطل ولا يجبن في مواطن الحق، ولا يألو جهداً في نصرته وإعزاز كلمته، أخبر عليه الصلاة والسلام أنه خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف- وهو من كان بخلاف ذلك- أما أنه خير فلأن به ينتظم العمران، ويستتب الأمن وتسود الطمأنينة على الأرواح والأعراض والأموال، وأما أنه أحب إلى الله فلأن الله تعالى يحب معالي الأمور ويكره سفسافها، وأحب الناس لله أنفعهم للناس. ومن هنا يعلم أن المؤمن القوي من السابقين، وأما المؤمن الضعيف فهو من أصحاب اليمين، ولذلك قال ﷺ: «وفي كل خير» كما قال تعالى: ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ . هذا ولهؤلاء الأقوياء السابقين مزية خاصة عند أهل الطريق؛ لأنهم هم الذين يقوون على متاعب السير، ويصبرون على هجر الشهوات، ويثبتون في مزالق الامتحان.

هم الرجال وعيب أن يقال لمن   لم يتصف بمعاني وصفهم رجل

نعم؛ لأن الواحد من هؤلاء يقطع من عقبات السير في اليوم الواحد ما لا يقطعه الضعيف المتردد في شهور وأعوام. ﴿ أُولَئِكَ ﴾ السابقون المتقدم ذكرهم ﴿ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ الذين قربهم الله تعالى من حضرته العلية وأنالهم الحظوة والكرامة عنده، وفيه إشارة إلى أن قرب العبد من الله تعالى ناشئ من تقريبه عز وجل إياه، فلولا أنه تعالى قربه ما حظي بالقرب، ومن هنا قوله تبارك وتقدس ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (المائدة:٥٤) ، فقدَّم سبحانه ﴿ يُحِبُّهُمْ ﴾ على ﴿ يُحِبُّونَهُ ﴾ للدلالة على أنه لولا حبه لعبده ما أحبه العبد. ويحكى أن ذا النون المصري رضي الله عنه رأى رابعة

PDF Compressor Pro

العدوية وهي متعلقة بأستار الكعبة، وتقول: إلهي بحبك لي إلا ما غفرت لي. فقال لها ذو النون: يارابعة تأدبي وقولي: بحبي لك إلا ما غفرت لي. فقالت له: إليك عني يا ذا النون، لولا أن حبه سبق حبي له ما أحببته. وفي هذا يقول سيدي مصطفى البكري ﵁ في ورده المعروف بورد السحر: «ياذا العرش المجيد، يا فعال لما يريد، نسألك بحبك السابق في (يحبهم)، وبحبنا اللاحق في (يحبونه) أن تجعل محبتك العظمى وودك الأسنى شعارنا ودثارنا، اللهم آمين». ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ لعل الأظهر أن يكون خبراً ثانيًا عن اسم الإشارة، أي: أولئك المقربون. وأولئك أيضًا في جنات النعيم، فيكون فيه إشارتان لطيفتان:

١- إن وصف القرب ثابت لهم في الحياة الدنيا كما هو ثابت لهم في الدار الآخرة، فهو نعتهم اللازم، ووصفهم الدائم الذي لا ينفك عنهم بحال، هم في الدنيا مقربون من الله تعالى، متمتعون بمحبته، متشرفون بمشاهدته، كما أنهم في الآخرة كذلك؛ بل الآخرة أتم وأعظم.

٢- إن نعمة القرب من الله تعالى، وما يتبعها من اللذة الروحية أكمل وأفضل من النعيم الحسي في الجنة، حتى إن الأكابر إنما يشتاقون إلى الجنة؛ لأنها ميقات لرؤية الله تعالى، وحينما يحظون بهذه الرؤية ينسون ما هم فيه من النعيم.

وعن بعضهم أنه قال: لله رجال لو حجب الله عنهم في الجنة لاستغاثوا منها كما يستغيث أهل النار من الجحيم. وقال الربيع بن سليمان: حضرت محمد بن إدريس الشافعي ﵁ وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ

PDF Compressor Pro

لَمَحْجُوبُونَ ﴾ . فقال الشافعي: لما أن حجب هؤلاء - يعني الكافرين- في السخط كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا. قال الربيع، قلت: يا أبا عبد الله وبه تقول؟ قال: نعم وبه أدين الله ، لو لم يوقن محمد ابن إدريس - يعني نفسه ﷺ - أنه يرى الله لما عبده عز وجل. ومعنى ﴿ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ أي: الجنات التي ليس فيها إلا النعيم الخالص واللذة الدائمة، فليس هناك تعب ولا نصب ولا هم ولا نكد؛ بل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون. واختلفوا في الجنة، هل هي واحدة أو متعددة؟ فقيل: إنها متعددة وهي سبع: الفردوس وهي أعلاها وأفضلها، فجنة المأوى، فجنة الخلد، فجنة النعيم، فجنة عدن، فدار السلام، فدار الجلال. ولكل واحدة منها طائفة مخصوصة من المؤمنين يعلمها الله سبحانه وتعالى. وهذا ما ذهب إليه ابن عباس ﷺ. وذهب غيره إلى أنها أربع فقط أخذاً من قوله تعالى في سورة الرحمن ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ (الرحمن : ٤٦)، ثم قال بعد ذلك ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ (الرحمن:٦٢)...إلخ. وقيل: إن الجنة واحدة وما تقدم من الأسماء، فإنما هي أسماء لمسمى واحد؛ إذ كل اسم صالح لها. وظاهر الآية التي معنا يفيد أنها جنات متعددة وقرئ «في جنة النعيم» بالإفراد، والله أعلم. ثم بين سبحانه وتعالى أن السابقين موجودون في كل أمة، وفي كل جيل، وإن تفاوت عددهم كثرة وقلة فقال: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴾ أي: السابقون المذكورون ثلة ...إلخ. والثلة : الجماعة الكثيرة ﴿ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴾ أي: من أول كل أمة وصدرها كالصحابة والتابعين وتابعيهم من أمة سيدنا محمد ﷺ ، وإنما كثر السابقون في أوائل الأمم وصدورها لقربهم من عهد النبوة والوحي، ووقوفهم بالمشاهدة

PDF Compressor Pro

أو السماع القريب من ذلك على كثير من أنباء المرسلين وأحوالهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. ومعلوم بالضرورة أن نظر الأنبياء وخواص أتباعهم هو الترياق المجرب، فمن نظر إليهم ونظروا إليه على سبيل الود والعطف نال من القرب ووصل من الكمال ما لا يعلمه إلا الله تعالى، ألا ترى أنهم قالوا: إن صحبة الرسول تثبت لمن رآه ولو لحظة واحدة في عمره كله، ما ذاك إلا لما أودعه سبحانه في مشاهدة هذه الطلعة النبوية من الأنوار القوية والأسرار العجيبة. وإذا كان بعض الأتباع يقول: بيني وبين الرجل أن أنظر إليه وقد أغنيته. فكيف بالأنبياء وصحابتهم الأطهار؟ ومن هنا يقول ﷺ: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» ويقول: «الله الله في أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه». ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ أي: من المتأخرين في كل أمة من الأمم، وسبب ذلك ما ينشأ عن بعد العهد وطول الأمد من ضعف اليقين وكثرة الفتور عن الأعمال الصالحة. فضلاً عما يكون بينهم من التطاحن والتنافس على المنافع الشخصية والمآرب الذاتية. ولهذا ورد عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «ما من يوم يمضي إلا والذي بعده شر منه» فلا يزال الناس في تأخر وتقهقر، ولا يزال الخير في إدبار والشر في إقبال حتى لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، لكن مادام أصل الخير موجوداً والسابقون لا ينقطعون بالكلية ولا يذهب مددهم وإن قل عددهم فالأمة بخير. وناهيك عن هذا الوعد الكريم من الله تعالى الدال على وجود السابقين في المتأخرين وإن كانوا قليلاً، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى» فلله المنة والحمد.

PDF Compressor Pro

هذا، وحيث اتضح مما ذكرناه في بيان المراد من (السابقين) وكونهم ثلة من الأولين وقليلاً من الآخرين أنه ما من جيل يمضي أو يأتي من هذه الأمة المحمدية إلا وفيه طائفة من السابقين، يقومون بالحجة ويرشدون للمحجة، وينهون عن الفساد في الأرض حتى يأتي أمرالله تعالى، فأي مانع يمنعنا بعد ذلك من حمل قوله عليه الصلاة والسلام: «إن أمتي يكثرون الأمم» أي: يزيدون عليهم ويغلبونهم في الكثرة على ما يعم السابقين وغيرهم، فيكون سابقو هذه الأمة أكثر من سابقي الأمم الماضية، وأصحاب اليمين فيها أكثر من أصحاب اليمين فيهم، وإن كان هذا الحمل غير متعين وليس ضروريًا في توجيه الحديث الشريف؛ إذ يحتمل أن يكون معناه كما قال العلامة الألوسي وغيره: إن مجموع هذه الأمة سابقين وغير سابقين يكثر على من سواها من الأمم، وإن كان السابقون منها أقل من السابقين منهم، كقرية فيها عشرة من العلماء ومائة من العوام، وأخرى فيها خمسة من العلماء وألف من العوام، فعلماء الأولى أكثر من العلماء في الثانية، لكن مجموع أهل الثانية أضعاف مجموع أهل الأولى. والأسلم اعتقاد أن أتباع النبي ﷺ أكثر من أتباع سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والفائزين بالجنة من أمته أكثر من الفائزين بها من سواهم، كما نص عليه الحديث المتقدم وغيره. لكن كون السابقين من هذه الأمة أكثر أو أقل من سابقي الأمم الأخرى فأمر لا نرى معرفته من الضروريات في الدين. بقي أنه ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: لما نزلت ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فنزلت ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ

PDF Compressor Pro

الآخرين ﴾، فقال النبي ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة؛ بل نصف أهل الجنة، أو شطر أهل الجنة وتقاسمونهم النصف الثاني» فما معنى هذا؟ قلنا: معناه أن بعض الصحابة - لا كلهم بالضرورة - حينما سمعوا هذه الآية الكريمة الخاصة بالسابقين، وتبادر لأذهانهم أن المراد بالأولين فيها الأمم الماضية، وبالآخرين مجموع الأمة المحمدية كلها خشوا أن يكون الأمر في أصحاب اليمين، على نمط السابقين بأن يكونوا ثلة من الأمم وقليلاً منهم، فلذلك حزنوا وشق عليهم الأمر، فلما نزلت الآية التالية الخاصة بأصحاب اليمين، وفيها يخبر الله تعالى بأنهم ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ وبشرهم الرسول ﷺ بما بشرهم به من أنهم نصف أهل الجنة ويقاسمون الأمم النصف الباقي فرحوا واطمأنوا وذهب ما كان يساورهم من القلق والحزن. هكذا أجاب العلامة الألوسي في تفسيره. وإنما تبادر ذلك لأصحاب الرسول ﷺ، وخشوا ما خشوا على عادة الكُمل ودأب أهل الخشية والورع من هضمهم لنفوسهم وبنائهم على الأقل في عامة شئونهم والله تعالى أعلم.

ثم أخذ القرآن الكريم في تفصيل ما أعد للسابقين في جنات النعيم بقوله: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ أي: يكونون في جنات النعيم ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ ﴾ عظيمة ومقاعد فاخرة ﴿ مَّوْضُونَةٍ ﴾ منسوجة بالذهب وقضبان الفضة، ومكللة بالدر والزبرجد والياقوت، وعليها النمارق والفرش الغالية النفيسة ﴿ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ (الرحمن: ٥٤) كما في سورة الرحمن، والإستبرق هو الديباج الثخين، ومعلوم في العادة أن بطائن الفرش أقل من ظهائره، ومن ثم قال سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

أخبرتم بالبطائن فكيف بالظهائر؟ وقد ورد في بيان سرر أهل الجنة ووصف سعتها وارتفاعها ما يبهر الألباب، فعن ابن عباس ﵄ أنها كما بين مكة وأيلة. وورد أنها ترتفع مسافات بعيدة حتى إن المؤمن إذا أراد أن يجلس عليها تواضعت له، فإذا جلس عليها عادت كما كانت ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا ﴾ مضطجعين على هذه السرر أو جالسين متمكنين، والاتكاء يطلق في اللغة على الجلوس ومنه الحديث الشريف «لا آكل متكئًا» أي: متربعًا ومتمكنًا في الجلوس ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ أي: ينظرون إلى وجوه بعض ، فلا ينظر أحدهم إلى قفا أخيه لحسن عشرتهم ولطف مودتهم وكمال أدبهم ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ يدور عليهم لخدمتهم وإدخال السرور عليهم ﴿ وِلْدَانٌ ﴾ خدم صغار السن حسان الوجوه، قد بلغوا الغاية في الحُسْن واللطافة كما قال في آية أخرى ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ (الطور: ٢٤) روي أنه لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله ، الخادم كاللؤلؤ المكنون، فكيف المخدوم؟ فقال ﷺ : «فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» وليس قوله تعالى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ ﴾ من مقابلة الجمع بالجمع فيقتضي القسمة آحادًا؛ لأنه ورد عن رسول الله ﷺ أن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدامه فيجيبه ألف ببابه لبيك، لبيك ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي: خلدهم الله تعالى بمعنى: أنه أبقاهم على شكل الولدان من الحداثة والوصافة فلا يتحولون عن ذلك.

وقيل معنى ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ : مقرطون أي: لابسون الخلدة وهي القرط كما يكون في صبيان الدنيا للزينة والجمال.

واختلف العلماء في هؤلاء الولدان، فقيل: هم أولاد الدنيا الذين ليس لهم حسنات فيثابوا عليها، ولا سيئات فيعاقبوا عليها، فصيرهم الله تعالى خدمًا لأهل الجنة. وقيل: هم أولاد الكفار يجعلهم الله تعالى خدمًا للمسلمين في الجنة؛ لأنهم لم يبلغوا حتى يعاقبوا عقاب آبائهم على الكفر ولم يسلموا حتى يكونوا كسائر المسلمين. والصحيح أن أولاد الكفار وأولاد المسلمين بالأولى يدخلون الجنة، ويكونون كغيرهم في كرامتها ونعيمها، وأن هؤلاء الولدان نشء ينشئهم الله تعالى في الجنة كالحور العين، وليس في الجنة مشقة ولا حاجة إلى الخدمة كحاجة أهل الدنيا، وإنما طواف الولدان وخدمتهم زيادة في الإكرام والتنعيم ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾ الأكواب الأواني التي لا عرى لها - أي: لا آذان لها- ولا خراطيم - أي: بزابيز - والأباريق الأواني التي لها عرى وخراطيم ﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ أي: يطوفون عليهم بأكواب وأباريق من أنواع الأشربة المختلفة كالماء واللبن والعسل، وبكأس من خمر جارية ظاهرة للعيون ليكون في مرآها كما في شربها من اللذة والسرور ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنهَا ﴾ أي: لا يحصل لهم صداع بسبب شربها كما في خمر الدنيا، أو لا يفرقون عنها، أي: لا يبعدون عنها، ويحال بينهم وبين شربها، والكل حاصل فإنها لا يحصل منها صداع، ولا ألم، وهم لا يمنعون منها، ولا يفرقون عنها في وقت من الأوقات ﴿ وَلا يُنزِفُونَ ﴾ أي: لا تذهب عقولهم بسببها، فنفى سبحانه وتعالى عنها ألم الأجساد وضرر العقول، ويطوفون عليهم أيضًا بـ ﴿ فَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ أي: ينتقونه ويختارونه من فواكه الجنة، وهذا دليل على كثرتها وتنوعها؛ لأن التخير إنما يكون من الأنواع الكثيرة العديدة ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا

PDF Compressor Pro

يشْتَهُونَ ﴾ يرغبون فيه، وتميل نفوسهم إليه. وقد قلنا: إن طواف الولدان وخدمتهم من باب زيادة الإكرام والتنعيم فقط لا للحاجة إليهم لما ورد من أن فاكهة الجنة ينالها القائم والقاعد والنائم، وورد أيضًا أن في الجنة طيرًا مثل أعناق البخت تصطف على يد ولي الله - العبد المؤمن - فيقول أحدها: ياولي الله دعيت في مروج تحت العرش وشربت من عيون التسنيم فكل مني، فلا يزلن يفتخرن بين يديه حتى يخطر على قلبه أكل أحدها فيخر بين يديه على ألوان مختلفة فيأكل منها ما أراد، فإذا شبع تجمع عظام الطير فطار يرعى في الجنة حيث شاء. قال عمر رضي الله عنه، وروى أبو بكر رضي الله عنه: إنها لناعمة. قال: آكلها أنعم منها. ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ أي: ويطوف عليهم أيضًا حور عين، فهو عطف على ولدان مخلدون أو هو مبتدأ لخبر محذوف، والتقدير: ولهم حور عين، والثاني أحسن؛ لأنه على الأول يفيد أن الحور العين يطفن حولهم مع أن ذلك ليس من شأنهن، وإنما هو من شأن الخدم، وإن أجيب بأن من الحور العين من لسن بمقصورات في الخيام، ولا مخدرات، أو بأن طوافهن في نفس الخيام لا في خارجها، فلا ينافي أنهن مقصورات في الخيام. والحور جمع حوراء وهي: التي اشتد بياض عينها مع شدة سوادها - أي: العين - وقيل: أن تسود العين كلها، والعين جمع عيناء: وهي واسعة العين حسنتها ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ أي: الحور العين مماثلات في صفاتهن وحسنهن اللؤلؤ المكنون أي: المصون في الصدف المحفوظ من مس الأيدي وإصابة الهواء والشمس، فيكون في نهاية الحسن والصفاء. وقد وصف الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم الحور العين بأوصاف كثيرة، وورد في السنة عن بيان العدد الذي يكون منهن لكل واحد من أهل الجنة

PDF Compressor Pro

أخبار شتى. فقد روى أن نصيف الحوراء أي: خمارها الذي يكون على رأسها خير من الدنيا وما فيها، وروي أن مخ ساقيها يرى من وراء اللحم من شدة الحسن والصفاء، وروي أنه يسطع نور في الجنة فيقال: ما هذا؟ فيقال: ثغر حوراء ضحكت في وجه زوجها. وأن أدنى أهل الجنة له ثنتان وسبعون زوجة من الحور العين سوى أزواجه من أهل الدنيا، وأن الواحدة منهن لتأخذ مقعدتها قدر ميل، وورد أنهن يغنين لأزواجهن بأحسن ما سمع من الصوت، وأن مما يغنين به : «نحن الخيّرات الحسان، أزواج قوم كرام، ينظرون بقرة أعيان، نحن الخالدات فلا نمتنه- أي: فلا نمتن، والهاء للسكت- ونحن الآمنات فلا نخفنه، ونحن المقيمات فلا نظعنه» وسألت أم سلمة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل في شأن الحور العين ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ (الرحمن:٥٨) فقال: صفاؤهن كصفاء الدر الذي في الأصداف الذي لم تمسه الأيدي، وعن قوله عز وجل: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ (الصافات: ٤٩)، فقال: رقتهن كرقة الجلد الذي في داخل البيضة مما يلي القشر. وعن قوله: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ (الرحمن: ٧٠)، فقال: خيّرات الأخلاق، حسان الوجوه، إلى غير ذلك مما يطول ذكره ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي: قربهم الله تعالى إليه، وأكرمهم بما أكرمهم به، مجازاة لهم على أعمالهم الصالحة التي عملوها في الحياة الدنيا. وهذا منه سبحانه وتعالى مزيد تفضل وإكرام حيث أخبر بأن تقريبهم وتنعيمهم إنما وقع مكافأة ومجازاة لهم في نظير ما سلف منهم من الأعمال الصالحة، مع أنه سبحانه وتعالى هو الخالق لهذه الأعمال، والباعث عليها، والهادي إليها، والميسر لأسبابها وآلاتها ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ (الأعراف : ٤٣) . وفي

PDF Compressor Pro

الحكم للعارف ابن عطـاء الله ﷺ : أراد أن يتم نعمته عليك فخلق فيك العمل ونسبه إليك. فالفضل له تعـالى ابتداءً وانتهاءً، والحمد له أولاً وآخراً. ولهذا يقول رسول الله ﷺ : «لا يدخـل أحدكم بعمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسـول الله ؟ قال: ولا أنا إلا أن يتـغمدني الله برحـمة منه وفـضل» فالحديث الشريف ناظر إلى الحقـيقة ونفس الأمر، وأنه لولا فضل الله تعـالى ورحمـته ما استـحق أحد كائنًا من كان دخـول الجنة بما ينسبه إلى نفسـه من العمل الصالح؛ لأن هذا العـمل في الحقيقة بتـقديره تعالى وتيسيره وتوفـيقه وهداه. وأما الآية الكريمة فـمنظور فيـها إلى ظاهر الأمر. وقـيل: دخول الجنة بفـضل الله تعالى ورحمته وهو محمل الحديث الشريف، ودرجاتها بحسب الأعمـال وعليه تحـمل الآية الكريمة، وإليـه يشير قـوله تعالى فـي آية أخرى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ (الأحقاف: ١٩)، وقيل: غرض الحديث الشريف بيان أن كل ما يقدمه العبـد من الحسنات والأعمال الصالحات لا يصلح بذاته ثمنًا وعوضًـا للجنة وما فـيها من اللذة والـنعيم، لولا أن الله تعـالى تـفـضل فجعل الأمر كذلك. وعلى كل حال فالمطـلوب من العبد أن يجد ويجتهد في العبادة والعمل الصـالح ليفوز بالجنات ورفيع الدرجات، معـتقدًا أنه لا حول له ولا قوة إلا بالله تعالى، وأنه لولا فضله عز وجل ما قدر على شيء ولا أتى بعمل، ومـهما عـمل واستـقام فلن يوفي الله حـقه، ولن يـقدره قـدره، ولن يحـصي ثناء عليـه تبـارك وتقـدس. ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ أي: لا يسمعون في الجنة كلامًا قبيحًا وحديثًا ساقطًا ﴿ وَلا تَأْثِيمًا ﴾ أي: نسبة إلى الإثم بأن يقال لـهم: أثمتم مثـلاً. وقيل: التـأثيم هو الكذب. والمعنى أن الجنة خالية من اللغو والتأثيم فلا يسمع فيها شيء من ذلك ﴿ إِلاَّ قِيلاً ﴾ أي: إنما

PDF Compressor Pro

يسمعون قيلاً ﴿ سَلَامًا سَلَامًا ﴾ سلامًا بدل من قيلاً، أي: لا يسمعون إلا كلامًا خاليًا من الفحش والكذب سالمًا من اللغو والعيب من الملائكة أو من بعضهم أو من الله تعالى رب العالمين.

وههنا أمور يمكننا أن نستنبطها مما سبق وهي:

١- إن القرب من الله تعالى والفوز بما لديه من الكرامة والنعيم إنما ينال بالسبق والاجتهاد في طاعته وتقواه عز وجل ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٢) فمن جد وجد، ومن زرع حصد، ومن سار على الدرب وصل، وهذا هو مبنى الطريق وأساس ما عليه القوم. ومن ظن في الطريق خلاف ذلك فقد أساء الظن وأخطأ السبيل. وقد قالوا: من لم تكن له بداية محرقة فليس لها نهاية مشرقة. فالطريق جهاد وعمل وأدب مع الله -عز وجل- في جميع الأحوال، لا دعاوى ظاهرية وشقشقة لسانية أو أزياء مخصوصة كقطع زر أو لبس مرقعات...إلخ. وروي أن أبا محمد ابن أخي معروف الكرخي دخل على أبي الحسن بن يسار وعليه جبة صوف، فقال له أبو الحسن: يا أبا محمد، صوفت قلبك أو جسمك؟ صوف قلبك والبس القوهي على القوهي، والقوهي: نوع من جياد الثياب.

٢- إن الخير في الأمة المحمدية لا ينقطع فلن تخلو الأرض من قائم بحجة الله تعالى، داع إلى سبيله هاد إليه، عامل بشرعه حتى يأتي أمر الله تعالى كما أشارت إليه الآيات القرآنية وصرحت به الأحاديث النبوية. وما عليه كثير من المسلمين الآن من التفريط والإهمال لا يدل على فقد هذه الخيرية وذهاب الصالحين بالكلية.

٣- إن نعيم الآخرة حسي جسماني كما دلت عليه النصوص القاطعة التي لا تحتمل التأويل من الكتاب والسنة، ومنها ما تقدم ذكره في

PDF Compressor Pro

هذا المقال. وقد أجمع المسلمون قاطبة على ذلك من عهده ﷺ إلى وقتنا هذا؛ بل أجمع عليه أهل الملل والشرائع كلها من بدء الخليقة إلى الآن ولم يشذ إلا شرذمة ضئيلة من الملاحدة وجهلة الفلاسفة زعموا أن النعيم في الآخرة معنوي روحاني فقط، ومن العجيب ما سمعناه عن بعض المتنسبين إلى الإسلام من تحبيذ هذا الرأي الفاسد السخيف، ولا ندري كيف يتفق هذا التحبيذ مع الإيمان بآيات الله تعالى الصريحة الدالة على أن هناك جنة عرضها السماوات والأرض، فيها سرر موضونة، فاكهة، ولحم طير، وحور عين...إلخ. فرحماك اللهم رحماك.

٤- إن التعريف بثواب الأعمال، وبيان المزايا المترتبة عليها في الدنيا والآخرة مطلوب، قال بعض العارفين: من لم يعرف ثواب الأعمال ثقلت عليه في جميع الأحوال؛ إذ لا يحمل النفوس على الأعمال وملازمة قرع الباب إلا معرفة ما لها من الثواب. وذلك موجود في غير ما حديث، ثم لا يقدح في إخلاص العبد أن يريد بعمله حظوظ نفسه من النعيم الموعود به في الجنة. ولا يغير صحة نيته؛ لأن الله تعالى مدح ذلك ورغب فيه في كتابه العظيم ووصف نبيه الكريم ﷺ اهـ ملخصًا. نعم، إن العبادة لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته أكمل وأعلى، لكن الوصول إلى هذا المقام لا يتم غالبًا إلا بصحبة الأشياخ العارفين.

٥- إنه ينبغي للإنسان أن يعمل ويجتهد في تصفية أعماله من شوائب الرياء والعجب، لكن لا يعتمد على العمل ذاته، وإنما يعتمد- بعد أداء المطلوب منه- على الله تعالى وحده. هذا هو الدين الخالص والصراط القويم، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

***

PDF Compressor Pro

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ
مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ
مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)
وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا
(٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (٣٩)
وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ صدق الله العظيم

[من سورة الواقعة: ٢٧ - ٤٠]

هذا بيان لحالة الفريق الأول من الأزواج الثلاثة المذكورين في صدر السورة الكريمة، وهم أصحاب الميمنة، وتفصيل لبعض ما أعده الله تعالى لهم يوم القيامة من أنواع اللذة والنعيم، والتعبير عنهم فيما سبق بأصحاب الميمنة وهنا بأصحاب اليمين للتفنن كما قيل.

والمعنى ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ أي: أصحاب اليُمن والسعادة، وهم المؤمنون الموحدون أصحاب المنازل السنية، والدرجات العلية، الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم ويؤخذ بهم يوم القيامة إلى الجنة ذات اليمين ﴿ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ أي: إنهم في نهاية الشرف وحسن الحال في الدنيا والآخرة، وأي شرف فوق شرف الإيمان، وأي سعادة فوق المعرفة بالله تعالى والتمتع بحبه ورضاه. أجل، إن الإيمان وتوابعه هو مجمع

PDF Compressor Pro

السعادات ورأس الكمالات، فالمؤمن الموفق لطاعة الله تعالى هو السعيد الفائز في الدارين، كما قال عزّ شأنه ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٧٢) فليست السعادة والفوز في كثرة الأموال والأولاد وحيازة المناصب العالية في الدنيا، بل السعادة والفوز واليُمن كله في معرفة الله تعالى، والتشرف بطاعته وطاعة رسله عليهم الصلاة والسلام. ومن لفت نظره إلى هذا التعبير ﴿ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ وما فيه من التنويه بشأن أصحاب اليمين والتفخيم لقدرهم، والتعجب من حسن حالهم، يدرك قيمة الإيمان بالله تعالى، وما له من المزية والفضل. وهذه الجملة هي الخبر عن قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾. وأما قوله: ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ ...إلخ فهو خبر ثان أو خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير هم في سدر، وعلى هذا يكون الإخبار الأول لبيان شرفهم وكرامتهم عند الله تعالى في الحياة الدنيا وفي الدار الآخرة. والإخبار الثاني لبيان ثوابهم وحسن مكافأتهم في الجنة. وإنما قال تعالى: ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ ولم يقل مثلاً: لهم سدر مخضود، ليدلنا على كمال انتفاعهم وشدة تمكنهم من هذه النعم مع دوام تمتعهم بها. والسدر: شجر النبق، والمخضود: الذي خضد شوكه أي: قطع؛ لئلا يؤذي متناوله. وقيل: المخضود: المثني الأغصان من كثرة الحمل. وعن أمامة رضي الله عنه قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله ينفعنا بالأعراب ومسائلهم. أقبل أعرابي يومًا فقال: يا رسول الله، لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية. وما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها. فقال رسول الله ﷺ: وما هي؟ قال: السدر، فإن لها شوكًا، فقال رسول الله ﷺ: أليس

PDF Compressor Pro

يقول الله في سدر مخضود؟ يخضده الله - أي: يقطعه - من شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة. وأن الثمرة من ثمره تفتق عن اثنين وسبعين لونًا من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر. ﴿ وَطَلْحٍ ﴾ هو شجر الموز، وقيل: شجر آخر ظله بارد رطب. وقيل: شجر يشبه طلح الدنيا ثمره أحلى من العسل ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ نضد أي: جمع وتراكم حمله من أسفله لأعلاه بحيث لا تكون له ساق بارزة وخالية من الحمل كطلح الدنيا ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ دائم أبدًا لا ينقطع ولا تنسخه الشمس كظلال الدنيا. روي عن مجاهد قال: كانوا يعجبون من وج(١) وظلاله من طلحه وسدره، فأنزل الله: ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرأوا إن شئتم ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الظل الممدود شجرة في الجنة على ساق ظلها قدر ما يسير الراكب في كل نواحيها مائة عام، فيخرج إليها أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم، فيتحدثون في ظلها، فيشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا، فيرسل الله ريحًا من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا. وعنه أيضًا رضي الله عنه قال: في الجنة شجر لا يحمل - أي: ليس له حمل ولا ثمر - يستظل به ﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ جار على وجه الأرض من غير أخدود، أي: حفر في الأرض، ولا ينقطع جريه في وقت من الأوقات. ﴿ وَفَاكِهَةٍ ﴾ مختلفة الأجناس والألوان ﴿ كَثِيرَةٍ ﴾ بالغة الغاية في الكثرة ﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ ﴾

(١) هو واد بين الطائف ومكة المكرمة، وقيل: هو الطائف نفسه.

PDF Compressor Pro

في زمن من الأزمنة كفواكه الدنيا، فإن لكل نوع منها وقتًا مخصوصًا يظهر فيه ولا يظهر في غيره، كفاكهة الصيف لا تكون في الشتاء وبالعكس، ﴿ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ بأي مانع كان، فلا تتوقف على إذن ولا بذل ثمن، ولا يمتنع تناولها على متعاطيها بشوك يؤذيه أو حائط يحول بينه وبينها مثلاً. فهي موجودة على الدوام، قريبة التناول في كل حال حتى إن العبد إذا اشتهاها في وقت من الأوقات دنت منه بدون محاولة ولا حصول تعب كما قال عز من قائل: ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ (الحاقة: ٢٣) وقال: ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ (الإنسان: ١٤)، ولما كان من تمام اللذة وكمال السرور وجود حليلة للإنسان يتمتع بها ويأنس بقربها منه، قال تعالى: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أي: نساء في الجنة مرفوعات القدر على نساء الدنيا لجمالهن وكمالهن، فالمراد بالفرش: النساء، والعرب تسمي المرأة فراشًا وتسميها لباسًا . ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ ﴾ (البقرة: ١٨٧) ويؤيد هذا الضمير في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ ﴾ ؛ لأن الأصل رجوع الضمير إلى شيء متقدم في الذكر. والأكثرون على أن المراد بالفرش ما يفرش للجلوس عليه، وقوله: ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أي: مرفوعة معنًا لنفاستها وعلو قيمتها، وحسًّا لرفعها على الأسرة أو لرفع بعضها فوق بعض. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ قال: ارتفاعها كما بين السماء والأرض مسيرة ما بينهما خمسمائة عام. وعلى هذا فالضمير في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ ﴾ يعود إلى مفهوم من المقام. ومعنى أنشأناهن: أوجدناهن بمحض قدرتنا على الهيئة التي هُنَّ عليها من غير ولادة ولا سبق وجود قبل ذلك. وهذا على أن المراد بهن

PDF Compressor Pro

الحور العين أو أعدنا خلقهن وأنشأناهن ﴿ إِنشَاءً ﴾ جديدًا مغايرًا لخلق الدنيا بناء على أن المراد بهن نساء الدنيا كما ورد عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ في هذه الآية: «إن المنشآت اللاتي كن في الدنيا عجائز عمشًا رمصًا[(١)]». وفي رواية أخرى عنه ﷺ قال: «هن الشيبات والأبكار اللاتي كن في الدنيا». وعن الحسن ﷺ قال: «أتت عجوز فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال: يا أم فلان، إن الجنة لا تدخلها عجوز. فولت تبكي، فقال: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز». إن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴾ الآيات. ويؤخذ من هذه الآية الكريمة، وهذا الحديث الشريف - كما قال بعض الفضلاء- أن نساء الدنيا يخلقهن الله في القيامة خلقًا جديدًا من غير توسط ولادة، خلقًا يناسب البقاء والدوام، وذلك يستلزم كمال الخلق وتوفر القوى الجسمية، وانتفاء سمات النقص كما أنه خلق الحور العين على ذلك الوجه. اهـ. ومن توابع هذه الخلقة الجديدة في الجنة أن نساءها مطهرات من الحيض والنفاس، ومن البول والغائط وسائر الأقذار الحسية والمعنوية؛ بل جميع أهل الجنة كذلك فلا يبصقون ولا يتمخطون، ولا يبولون ولا يتغوطون...إلخ. وكذلك لا ينامون ولا تكون لهم بها أسنان ولا للرجال لحي كما قال بعضهم:

وستة خصت بأهل الجنة ... لا بول لا غائط لا أجنة
ولا لحى فيها ولا أسنانا ... والنوم منفي كذا أتانا

فأهل الجنة إذن لهم أحكام وحالات غير حالتهم في الحياة الدنيا، ولذلك يتأهلون فيها لرؤية الله -عز وجل- من غير كيف ولا انحصار. ولو

---

(١) جمع عمشاء، وهي ضعيفة النظر. ورمص: جمع رمصاء من الرمص وهو جمود الوسخ في موق العين.

PDF Compressor Pro

أن المعتزلة استحضروا ذلك وفطنوا إليه، وأدركوا تمامًا أن عالم الآخرة غير عالمنا هذا المادي المحدود، وأن لنا فيه أحكامًا وأحوالاً تغاير أحكامنا وأحوالنا المعهودة، لو أنهم استحضروا ذلك وفطنوا إليه حقًّا لما وسعهم إنكار رؤية الله تعالى في الآخرة، ولا اجترأوا على كتاب الله تعالى، فأولوا نصوصه الواضحة الصريحة على سنة رسول الله ﷺ فردوا أحاديثه الثابتة الصحيحة. ولكنهم وقفوا مع العادات حتى تاهوا في بيداء الضلالات. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ﴾ أي: صيرناهن ﴿أَبْكَارًا﴾ على الدوام، كلما جامعن أزواجهن عُدن أبكارًا لكن من غير حصول ألم ولا وجع لهن كما وردت به الأخبار ﴿عُرُبًا﴾ جمع عروب وهي المرأة المتحببة إلى زوجها، الحسنة الكلام معه. وقريب منه قول من قال: هي المتبذلة لزوجها، الخفرة - أي: شديدة الحياء - وهي بعيدة عنه. وفي هذا إشارة إلى طلب تبذل المرأة لزوجها، وتصنعها له، وتحببها إليه. وقد روى: «خير نسائكم العفيفة الغلمة» . أي: العفيفة عن الأجانب، الغلمة : أي: المتصنعة المتزينة لزوجها التي تظهر له أنها تميل إليه وتشتهيه، وقد عكس نساء اليوم الأمر، فإذا كان الشاعر يقول في نساء زمنه.

يعرين عن بعولهن إذا خلوا ... وإذا همو خرجوا فهن خفار

أي: خجلات مستحييات. ومعنى يعرين: ينزعن خصيف الثياب ويبقين برقاقها، وليس المراد حقيقة العري. إذ كان هذا الشاعر يقول ذلك في نساء زمنه، فليته كان حاضر زمننا ليشهد ما أحدث النساء من الخلاعة والمجون خارج بيوتهن ومع غير بعولتهن وما أحدثنه من سوء الخلق وجفاء الطبع وترك التزين لأزواجهن. ومن الأسف أن بعض شعراء اليوم

PDF Compressor Pro

وبعض الكتاب أيضًا كثيرًا ما يقرونهن على التمادي في هذا الحال السيء
﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ (الشعراء: ٢٢٧).

﴿ أَتْرَابًا ﴾ مستويات في السن كما أن أزواجهن يكونون كلهم على سن واحدة، وهو ثلاثون أو ثلاث وثلاثون سنة لحديث: «يدخل أهل الجنة الجنة جردًا مردًا، بيضًا مكحولين أبناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين سنة»، ومعنى جردًا خالية أجسادهم من الشعر، ومردًا لا لحى لهم ﴿ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ متعلق بأنشأناهن أي: أنشأنا النساء المذكورات لأصحاب اليمين فهن مخلوقات لهم ومختصات بهم ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ (الرحمن: ٥٦)، وهذا من مزيد الإكرام وتمام الإحسان؛ لأن الإنسان متى علم بأن الشيء مصنوع لأجله و مختص به فإنه يعظم بذلك سروره، ويكمل به حبوره، ويعلم أهل الجنة اختصاص كل واحد منهم بما خصه الله تعالى به من الحور وغيرها بإلهام منه -عزَّ وجلَّ- كما قال ﷺ: «لأحدكم بمنزله في الجنة أعرف منه بمنزله في الدنيا»، وقيل: إنه تعالى رسم على كل منزل اسم صاحبه. وورد أيضًا أن هناك ملائكة موكلين بتعريف المؤمنين كل ما لهم في الجنة. كما رواه ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: بلغنا أن الملك الذي وكل بحفظ عمل الشخص في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة، ويتبعه الشخص حتى يأتي أقصى منزل هو له فيعرفه كل شيء أعطاه الله تعالى في الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزل - أي: من منازله- في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه. والظاهر أن الكل يحصل فالله تعالى يعرفهم منازلهم وأشياءهم في الجنة ومع كل ذلك يبعث إليهم الملائكة يمشون أمامهم إلى منازلهم زيادة في الإكرام

PDF Compressor Pro

وإدخال السرور عليهم حتى إذا وصلوا إليها وجدوا أسماءهم مكتوبة عليها فيتضاعف فرحهم ويزداد حبورهم والله ذو الفضل العظيم.

هذا ولا يخفى أن أصحاب اليمين وإن كانوا ناجين وممن وعدهم الله الحسنى أقل في الدرجة من السابقين المار ذكرهم في قوله عز وجل: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ فالسابقون هم: الخاصة والخلاصة وأصحاب اليمين هم العامة، ولذلك كانوا أكثر من السابقين؛ إذ الكمل من الناس أقلية بالنسبة لغيرهم في العدد وإن كان الواحد منهم لا يقوم له ألف ممن عداهم ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ أي: أصحاب اليمين جماعة كثيرة ﴿ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴾ من أول كل أمة ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ أي: وجماعة كثيرة أيضًا من آخرها. فالثلتان موجودتان في كل أمة من الأمم في صدرها وفي آخرها. وأما السابقون فهم ثلة في الأول فقط وفي الآخر قليل. وقولنا: فالثلتان موجودتان في كل أمة من الأمم لا ينافي ما ورد عنه ﷺ من قوله: «الثلتان جميعًا من أمتي»؛ لأن معنى الحديث والله أعلم أن الثلتين موجودتان في هذه الأمة المحمدية وليس المراد أنها مصدرتان في هذه الأمة كما يتبادر من عبارات كثير من المفسرين. وإذا كان في الأمم الماضية سابقون وهم أعز وأفضل فكيف لا يكون فيهم أصحاب اليمين وهم أقل درجة وأدنى فضلاً؟ وهل التفاوت بين البشر واختلاف منازلهم إلا من الأمور الضروريات التي توجد في كل أمة وفي كل عصر؟ فأصحاب اليمين موجودون في جميع الأمم، وهم في هذه الأمة أكثر منهم في غيرها، كما أن السابقين فيها أكثر من سابقي الأمم الماضية على ما قررناه في الصفحات السابقة، ولهذا كانت هذه الأمة المحمدية أكثر الأمم حتى أنها وحدها لتبلغ نصف أهل الجنة، وتقاسم الأمم في النصف الثاني.

وورد أن أهل الجنة مائة وعشرون صفًّا، وسائر الأمم أربعون، وهذه الأمة ثمانون. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال: «عرضت عليّ الأمم، يمر النبي معه الرجل، ويمر النبي معه الرجلان، والنبي ليس معه أحد، والنبي معه الرهط، فرأيت سوادًا كثيرًا فرجوت أن تكون أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ثم قال لي: انظر فرأيت سوادًا كثيرًا قد سدَّ الأفق، فقيل: انظر هكذا وهكذا، فرأيت سوادًا كثير، فقيل لي: هؤلاء أمتك، ومع هؤلاء سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب» وفي بعض الروايات: «ثم نهض النبي صلى الله عليه وسلم فدخل منزله فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: لعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله، وذكروا أشياء. فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: ما الذي تخوضون فيه؟ فأخبروه. فقال: «هم الذين لا يرقون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون». فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: أنت منهم، ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة» ، والرهط ما دون عشرة أنفس. والسواد الكثير: الناس الكثيرون، والأفق: الناحية، وقوله عليه الصلاة والسلام في الذين يدخلون الجنة بغير حساب هم الذين لا يرقون...إلخ، أي: لا يرقون غيرهم بالرقى الممنوعة شرعًا، أو لا يرقون معتقدين التأثير للرقية، وإلا فالرقية بالوارد في السنة لا تنافي التوكل على الله تعالى، ومعنى يسترقون يطلبون الرقية من غيرهم، ولا يتطيرون أي: لا يتشاءمون كما كان يقع ذلك من العرب كثيرًا.

PDF Compressor Pro

هذا، ويحسن بنا أن ننبه على هذه الأمور الآتية:

١- روي أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ فقبض يديه قبضتين فقال: «هذه في الجنة أي: يقول الله تعالى هذه في الجنة ولا أبالي، وهذه في النار ولا أبالي» وهذا يبين أن قسمة الناس إلى سعداء يدخلون الجنة، وأشقياء يعذبون في النار مرجعها إلى محض إرادة الله تعالى، وليس لها علة ولا سبب غير ذلك، وهذا لا ينافي وجوب العمل والاجتهاد في طاعته عز وجل كما قال عليه الصلاة والسلام: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

٢- يؤخذ مما سبق أن أحكام الآخرة غير أحكام الدنيا ونعيمها، وإن كان حسيًّا جسمانيًّا إلا أنه يختلف عن نعيم الدنيا اختلافًا كبيرًا، ويفضله كمًّا وكيفًا بما لا يعلمه إلا الله تعالى، ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون ولا يهرمون ولا يسقمون، ولا يضطرهم الأكل والشرب إلى قضاء الحاجة، وإذا تمنى أحدهم شهوة معينة وجدها حاضرة عنده بلا محاولة ولا سعي، وإذا أراد زيارة أخ له سعى به سريره إليه، إلى غير ذلك من الأمور العجيبة التي لم تجر بها العادة في الدنيا. وقد ورد في الحديث: يقول الله تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». ومهما تفاضل أهل الجنة في النعيم فإنه لا يوجد بينهم غل ولا يحسد بعضهم بعضًا. قال تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ (الأعراف: ٤٣) أي: أذهبنا في الجنة ما كان في قلوبهم من الغل في الدنيا. وفي الحديث: «الغل على باب الجنة كمبارك الإبل، قد نزعه الله من قلوب المؤمنين».

PDF Compressor Pro

٣- يؤخذ مما سبق أيضًا أن أهم وظائف المرأة وخير ما فيها من المحاسن والخصال تحببها إلى زوجها، وتعشقها إياه وتزينها له، وذلك من دين الله تعالى ومراضيه، قال في الإحياء: ومن آداب المرأة ملازمة الصلاح والانقباض في غيبة زوجها، والرجوع إلى اللعب والانبساط وأسباب اللذة في حضوره. فعلى الفتيات المسلمات أن يعرفن ذلك فلا يصغين إلى إغراء من يغرونهن بمزاحمة الرجال في أعمالهم الخارجية ووظائفهم الأصلية.

٤- يؤخذ من الآيات التي معنا ومما سبق في قوله: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۞ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾... إلخ أنه لا بأس؛ بل ينبغي تنزيل الناس منازلهم، وإظهار خصوصية أهل الخصوصية منهم، وإعطاؤهم من الإكرام والتقريب على قدر استعدادهم وصدق اجتهادهم.

٥- قال العلامة الألوسي: الظاهر أن ما ذكر من حال أصحاب اليمين هو حالهم الذي ينتهون إليه، فلا ينافي أن يكون منهم من يعذب لمعاصي فعلها ومات غير تائب عنها ثم يدخل الجنة. ولا يمكن أن يقال: إن المؤمن العاصي من أصحاب الشمال؛ لأن صريح أوصافهم الآتية يقتضي أنهم كانوا كافرين، ويلزم من جعل هذا - يعني المؤمن العاصي - قسمًا على حدة كون القسمة أي: في قوله تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ غير مستوفاة، والله تعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

***

PDF Compressor Pro

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ * نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ صدق الله العظيم

سورة الواقعة [٤٢ - ٥٧]

هذا بيان لحال القسم الثالث من الأزواج الثلاثة، وهم أصحاب المشأمة الذين مر ذكرهم آنفًا ووصفوا أولاً بأنهم أصحاب المشأمة، وهنا بأنهم أصحاب الشمال؛ لأنهم جمعوا بين الوصفين، فهم أصحاب شؤم ونحس، وهم أصحاب الشمال الذين يأخذون صحائفهم بشمالهم، ويؤخذ بهم إلى جهنم ذات الشمال يوم القيامة . أي: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ **أي: إنهم في نهاية القبح وسوء الحال في**

PDF Compressor Pro

الدنيا والآخرة لما ارتكبوه من فظيع الجرائم وشنيع الخصال، ولهذا تراهم على الرغم مما فيه أكثرهم من الأبهة وحسن المظهر تعلوهم الذلة والكآبة، وترتسم على وجوههم ظلمات حالكة تجعل أهل البصائر النيرة- لولا تثبيت الله تعالى - يفرون منهم كما يفرون من السباع الضواري. فقوله عز وجل: ﴿ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ بيان لسوء حالهم في أنفسهم وما هم عليه من الخسة والقبح المعنوي في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأما جزاؤهم وما يستحقونه من العقاب الشديد، فقد بينه بقوله: ﴿ فِي سَمُومٍ ﴾ ...إلخ، والسموم: الريح الحارة التي تنفذ في المسام لشدتها وقوة حرارتها ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ ماء شديد الحرارة إذا شربوه عند اشتعال السموم في أبدانهم وتحرقهم من زيادة العطش قطع أمعاءهم ومزق أحشاءهم، نعوذ بالله من ذلك بمنه وكرمه . ﴿ وَظِلٍّ ﴾ ولكن ليس كسائر الظلال لأنه ﴿ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ وهو الدخان الأسود القاتم أو سرادق النار المحيط بها ﴿ لَّا بَارِدٍ ﴾ أي: ليس هذا الظل ببارد لطيف كالظلال المعهودة ﴿ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ نافع لمن يلوذ به ويأوي إليه من أذى الحر، وقيل: ﴿ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ ليس حسن المنظر، والظرفية المستفادة من قوله: ﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ ...إلخ للإشعار بأنهم منغمسون في الجحيم وفي العذاب الأليم، لا يفتر عنهم ولا يخرجون منه، وليس لهم مصير سواه، ثم بيَّن سبحانه وتعالى وجه استحقاقهم لهذا العقاب الشديد بقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا ﴾ في الحياة الدنيا ﴿ قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ اليوم وهو يوم القيامة ﴿ مُتْرَفِينَ ﴾ طاغين مستكبرين، قد ركبوا رءوسهم، واتبعوا هوى أنفسهم، وعتوا عن أمر ربهم، مستكبرين عما جاءتهم به رسلهم الكرام عليهم الصلاة والسلام

من الشرائع الحكيمة والنظم القويمة، فلم يتقيدوا بالتكاليف، ولم يتعبوا أبدانهم في طاعة الله تعالى. هذا هو المقصود بكونهم مترفين، لا أنهم كانوا متنعمين بالمآكل الطيبة والمشارب اللذيذة والمساكن الفخمة، فإن هذا مع أداء الواجبات وترك المحرمات لا بأس به ولا ضرر فيه، وكذلك التجمل بالملابس الحسنة لقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (الأعراف: ٣٢)، وقد كان سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه يقول لأصحابه: كلوا من طيب الطعام واشربوا من ألذ الشراب، وناموا على وطئ الفراش، والبسوا ألين الثياب، فإن أحدكم إذا فعل ذلك وقال: الحمد لله، يستجيب كل عضو فيه للشكر، بخلاف ما إذا أكل خبز الشعير، ولبس العباءة، ونام على الأرض، وشرب الماء المالح السخن، وقال: الحمد لله، فإنه يقول ذلك وعنده اشمئزاز وبعض سخط على مقدور الله تعالى، ولو أنه نظر بعين البصيرة لوجد الاشمئزاز والسخط الذي عنده يرجح في الإثم على من تمتع بالدنيا بيقين، فإن المتمتع بالدنيا فعل ما أباحه الحق سبحانه وتعالى، ومن كان عنده اشمئزاز وسخط فقد فعل ما حرمه الحق عز وجل، وفي تفسير القرطبي قال أبو الفرج الجوزي: وأنا أكره لبس الفوط والمرقعات لأربعة أوجه، أحدها: إنه ليس من لبس السلف وإنما كانوا يرقعون ضرورة، والثاني: أنه يتضمن ادعاء الفقر، وقد أمر الإنسان أن يظهر أثر نعم الله عليه، والثالث: إظهار التزهد وقد أمرنا بستره، والرابع: إنه تشبه بهؤلاء المتزحزحين عن الشريعة، ومن تشبه بقوم فهو منهم. وقال الطبري: وقد أخطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان مع وجود السبيل إليه من حله، ومن أكل البقول والعدس واختاره على خبز البر، ومن ترك أكل اللحم خوفًا من عارض شهوة النساء.

PDF Compressor Pro

وسئل بشر بن الحارث عن لبس الصوف فشق عليه وتبينت الكراهة في وجهه. ثم قال: لبس الخز المعصفر أحب إليَّ من لبس الصوف في الأمصار. وقال أبو الفرج: وقد كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة لا المترفعة ولا الدون، ويتخيرون أجودها للجمعة والعيد ولقاء الإخوان، ولم يكن تخير الأجود عندهم قبيحًا. وأما اللباس الذي يزري بصاحبه فإنه يتضمن إظهار الزهد وإظهار الفقر، وكأنه لسان شكوى من الله تعالى ويوجب احتقار الملابس، وكل ذلك مكروه ومنهي عنه. فإن قال قائل: تجويد اللباس هوى النفس، وقد أمرنا بمجاهدتها، وتزين للخلق وقد أمرنا أن تكون أفعالنا لله لا للخلق، فالجواب: إنه ليس كل ما تهواه النفس يذم، ولا كل ما يتزين به للناس يكره، وإنما ينهى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه أو على وجه الرياء في باب الدين، فإن الإنسان يجب أن يُرى جميلاً وذلك حفظ للنفس لا يُلام عليه، ولهذا يسرح شعره وينظر في المرآة ويسوي عمامته ويلبس بطانة الثوب الخشنة إلى داخل وظهارته الحسنة إلى خارج، وليس في شيء من هذا ما يكره ولا يذم. وقد روى مكحول عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه على الباب، فخرج يريدهم وفي الدار ركوة فيها ماء، فجعل ينظر في الماء ويسوي لحيته وشعره. فقلت: يا رسول الله ، وأنت تفعل هذا؟ قال: «نعم، إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيئ من نفسه، فإن الله يحب الجمال».

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس» والأحاديث في هذا المعنى كثيرة

PDF Compressor Pro

وتدل كلها على النظافة وحسن الهيئة. اهـ. وقال بعد ذلك: وقد اختلف في ترك الطيبات والإعراض عن اللذات فقال قوم: ليس ذلك من القربات والفعل والترك يستوي في المباحات، وقال آخرون : ليس قربة في ذاته وإنما هو سبيل إلى الزهد في الدنيا، وقصر الأمل فيها، وترك التكلف لأجلها، وذلك مندوب إليه والمندوب قربة. وقال آخرون ونقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: لو شئنا لاتخذنا صلاء وصلائق وصنابًا، ولكني سمعت الله تعالى يذم أقوامًا فقال: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ (الأحقاف: ٢٠). ويروى صرائق بالراء وهما جميعًا الجرادق - يعني الرغفان- والصلائق باللام ما يصلق من اللحوم والبقول، والصلاء بكسر الصاد والمد: الشواء، والصناب الخردل بالزيت. وفرق آخرون بين حضور ذلك كله بكلفة وبغير كلفة. قال أبو الحسن علي بن المفضل المقدس شيخ أشياخنا: وهو الصحيح إن شاء الله عز وجل، فإنه لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه امتنع عن طعام لأجل طيبه قط؛ بل كان يأكل الحلوى والعسل والبطيخ والرطب، وإنما يكره التكلف لما فيه من التشاغل بشهوات الدنيا عن مهمات الآخرة والله أعلم.

قلت: وقد كره بعض الصوفية أكل الطيبات، واحتج بقول عمر: إياكم واللحم، فإن له ضراوة كضراوة الخمر. والجواب: إن هذا من قول عمر، قول خرج على من خشي منه إيثار التنعم في الدنيا، والمداومة على الشهوات، وشقاء النفس من اللذات، ونسيان الآخرة والإقبال على الدنيا، ولذلك كان عمر يكتب إلى عماله: إياكم والتنعم وزي أهل العجم واخشوشنوا. ولم يرد عنه رضي الله عنه تحريم شيء أحله الله ، ولا تحظير ما أباحه الله تبارك اسمه. وقول

PDF Compressor Pro

الله أولى ما امتثل واعتمد عليه، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (الأعراف: ٣٢)، وقال عليه الصلاة والسلام: «سيد إدام الدنيا والآخرة اللحم»، وقد روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ كان يأكل البطيخ والرطب، ويقول: يكسر حر هذا برد هذا، وبرد هذا حر هذا.

وقد مضى الرد على من آثر أكل الخشن من الطعام، وما يوجد في كتب القوم مما يخالفه، فإن كان صادراً من أرباب الأحوال فلا حجة فيه؛ لأن صاحب الحال -كما هو معلوم- يسلم له حاله ولا يقلد فيه، وإن كان صادراً عن بعض شيوخ التربية وأصحاب المقامات بغرض المعالجة والمداواة لبعض المبتدئين الذين تكون نفوسهم مريضة بحب الشهوة والظهور، وقلوبهم متعلقة بالشهوات واللذات، وقد تمكن فيها داء الكبر والرياء فيأمرونهم في بادئ الأمر بطرح الملابس الجيدة، وترك المآكل اللذيذة علاجًا لنفوسهم وتطهيراً لقلوبهم، حتى إذا تهذبوا وصفت بواطنهم، وأمنوا جانب التصنع والرياء، أذنوا لهم في ذلك على أصل قاعدة الشرع، وقد أطلنا في هذا الموضع لمسيس الحاجة، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿ وَكَانُوا ﴾ أي: أهل الشمال المذكورون مع كونهم مترفين ﴿ يُصِرُّونَ ﴾ أي: يلازمون ويقيمون ﴿ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ أي: الذنب العظيم وهو الشرك بالله تعالى، فهو الحنث العظيم والظلم العظيم، كما في آية أخرى ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان: ١٣). قال بعض الأجلاء: وهذا الذنب العظيم لم يوجد من غير النوع الإنساني لاختلاف أجزائه وكونه مظهر العجائب، فليس في الحق من يجهل الحق ولا

PDF Compressor Pro

من يشرك به- كما نقله الشعراني عن الشيخ محيي الدين- فهم ملحقون بالكفار لا بالمشركين، وإن كانوا هم الذين يوسوسون بالشرك للناس، ولذلك قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الحشر: ١٦) ، ولعظم هذا الذنب لم يجز غفرانه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ (النساء: ١١٦)، قال الشعراني: فإن قلت: هل وصف الشرك بأنه ظلم عظيم راجع إلى ظلم العبد نفسه، أو إلى ظلم غيره من الخلق، أو إلى ظلم صفات الألوهية؟ والجواب ما قاله الشيخ في الباب الثاني والسبعين من الفتوحات: إن الشرك إنما هو من مظالم العباد قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (البقرة: ٥٧)، فيأتي يوم القيامة مع من أشركوه مع الله تعالى في الألوهية من حيوان أو نحو ذلك، فيقول: يارب خذ لي مظلمتي من هذا الذي جعلني إلهًا، ووصفني بما لا ينبغي لي، فيأخذ الله تعالى له بمظلمته من المشرك ويخلده في النار مع شريكه إن كان حجرًا أو حيوانًا غير إنسان، أما الإنسان فلا يخلد في النار مع عبدته إلا إن رضي بما نسب إليه من الألوهية. أما نحو عيسى والعزير -عليهما السلام- وعلي بن أبي طالب فلا يدخلون النار مع عبدتهم؛ لأن هؤلاء ممن سبقت لهم من الله الحسنى. وقد خفي على بعض الأذهان القاصرة عظم ذنب الشرك ومزيد شناعته فاستبعد أن يدخل المشرك النار خالدًا مخلدًا فيها أبدًا حتى ولو لم يصدر منه اعتداء على مخلوق بنهش عرض أو أخذ مال مثلاً، مع أنه لو لفت نظره قليلاً إلى خبث نفس المشرك، وفساد فطرته وتلوث سريرته، وعظيم ظلمه وجنايته على نفسه وعلى غيره،

PDF Compressor Pro

بحيث صارت نفسه لا تقبل شيئًا من الخير ولا تميل إليه أصلاً بدليل أنه عاش حياته كلها مصرًا على شركه، مقيمًا على عناده، حتى إنه لو مات وعاين عذاب الشرك وما يحل بالمشركين من العذاب الأبدي والشقاء السرمدي، ثم رد إلى الحياة الدنيا لعاد إلى ما كان عليه، كما قال الحق جل شأنه: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾(الأنعام: ٢٨) لو لفت هذا المستبعد نظره قليلاً إلى ذلك لزال استبعاده في مثل لمح البصر، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وفي تفسير الفخر الرازي: إن قومًا قالوا بأن عذاب الكفار منقطع وله نهاية، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ (هود: ١٠٦، ١٠٧)، وبقوله تعالى: ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ (النبأ:٢٣)، وبأن معصية الظلم متناهية، فالعقاب عليها بما لا يتناهى ظلم. ونسب هذا بعضهم إلى جماعة من أصحاب الرسول ﷺ، قال العلماء المحققون: وهذا لم يصح عنهم، وعلى التنزل فهو محمول على عصاة المؤمنين، وأما عذاب الكفار فلا ينقطع أبدًا. وأجابوا عن الآية الأولى بأن التقييد فيها بقوله: ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ المراد به سماوات النيران وأرضها؛ إذ السماء كل ما علاك والأرض كل ما استقررت عليه، وكون النار لها سماء وأرض بهذا الاعتبار أمر قطعي لا يصح التوقف فيه. أو المراد سماوات الدنيا وأرضها وأجرى ذلك على عادة العرب في الإخبار عن دوام الشيء وتأييده بذلك ونحوه قولهم: لا آتيك ما دامت السماوات والأرض، أو ما جن ليل وسال سيل، أو ما اختلف الليل والنهار، فهذه الألفاظ في عرفهم تفيد الأبد والدوام، وقوله: ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾

PDF Compressor Pro

استثناء من قوله: ﴿ فِيهَا ﴾ ؛ لأنهم يخرجون من النار إلى الزمهرير وإلى شرب الحميم ثم يعودون فيها، فهم خالدون فيها أبداً، إلا في تلك الأوقات، فإنها وإن كانت أوقات عذاب أيضًا، إلا أنهم ليسوا حينئذ فيها حقيقة. أو أن المراد ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ من عصاة المؤمنين وهو استثناء من ضمير ﴿ خَالِدِينَ ﴾ وما تأتي للعاقل كثيراً كقوله تعالى: ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾، ولهم عن الآية الكريمة أجوبة أخرى تبلغ نحو العشرين كما قال بعضهم، وأما الجواب عن الآية الثانية فمن وجوه أيضًا، أحدها ما روي عن الحسن ﷺ قال: إن الله لم يجعل لأهل النار مدة؛ بل قال: ﴿ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ (النبأ: ٢٣) فوالله ما هو إلا أنه إذا مضى حقب دخل حقب إلى الأبد، وليس للأحقاب مدة إلا الخلود. وروي عن ابن ١
مسعود ﷺ أنه قال: لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا، ولو علم أهل الجنة أنهم يلبثون في الجنة عدد حصى الدنيا لحزنوا، وحاصل هذا الوجه أن لفظ الأحقاب لا يدل على نهاية، وإن كان الحقب الواحد متناهيًا. وقيل: إن هذا توقيت لأنواع العذاب الذي يبدلونه لا توقيت لبثهم في النار. وقيل: إن هذا جار على عادة العرب من أنهم يعبرون به وبنحوه عن الدوام كما سبق. وقولهم: إن معصية الظلم متناهية، فالعقاب عليها بما لا يتناهى ظلم، يؤخذ جوابه بما أسلفناه قريبًا، وخلاصته ما أشار إليه الحق -جَلَّ شأنه- في قوله: ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ فالكافر مصر وعازم على الكفر ومصمم عليه إلى الأبد بدون أن يكون لذلك نهاية، فكان جزاؤه أن يعاقب بما ليس له نهاية، فهو لم يعاقب بالدائم إلا على دائم، فلم يكن عذابه إلا كما قال الله تعالى: ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ فالكفر بالله تعالى والإشراك به هو أكبر الكبائر وأعظم الجرائم، وأقبح

PDF Compressor Pro

الخصال على الإطلاق، ومن ثم وردت النصوص القواطع التي لا تحصى كثرة ولا تقبل التأويل أصلاً من الكتاب والسنة، وانعقد إجماع الأئمة سلفًا وخلفًا على تخليد صاحبه في النار وعدم خروجه منها أبدًا، وله ضروب ومقتضيات كثيرة توجب لفاعلها الكفر، وإن صرح بأنه من المسلمين: منها الرضا بالكفر ولو ضمنًا، ومشاركة أهله في القيام بشعائرهم الدينية، ومنها اعتقاد صحة دين غير الدين الإسلامي، أو الإتيان بما يدل على تعظيمه واستحسانه قولاً كان أو فعلاً، ومنها إهانة شيء من القرآن أو الحديث أو العلم الشرعي، أو إلقاء ورقة مكتوب فيها شيء من ذلك في مكان قذر قصدًا، ومنها تنقيص نبينا ﷺ أو أي: أحد من الأنبياء السالفين عليهم الصلاة والسلام، كأن يلعنه أو يسبه أو يستهزئ به أو بشيء من سنته، أو يلحق نقصًا في نسبه أو في خلقه أو يعرض بشيء من ذلك، ومنها إنكار شيء من الأمور الدينية المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة، كأن ينكر البعث والحساب والجنة والنار وغير ذلك مما استوفاه العلماء في موضعه ليحذره المسلم ويتحفظ من الوقوع في شيء منه فيبوء بالخيبة واللعنة والخسران المبين، ثم بيَّن الحق جل شأنه أن أصحاب الشمال المذكورين قد ضموا إلى إصرارهم على الحنث العظيم إنكارهم للبعث والنشور فقال: ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ ﴾ بقلوبهم وبألسنتهم ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ يتعجبون من قول الله لهم: إنهم سيبعثون بعد أن يموتوا وتأكل الأرض أجسامهم، وقد سبقت أجيال طويلة ماتوا ولم يعد منهم أحد، ولذلك فهم يقولون: ﴿ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ هل يعودون بعد أن ماتوا وقد سبقونا؟ وهم منا أقدم ومكثهم في بطن الأرض أطول؟ قال الله تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ردًّا عليهم ﴿ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴾

PDF Compressor Pro

أي: أنتم وآباؤكم وسائر الأمم من الأولين والآخرين ﴿ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ يجمعهم الله تعالى بعد البعث ﴿ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ وهو يوم القيامة، وهو معلوم لله تعالى ومعين عنده وله حد لا يتجاوزه وميقات لا يتعداه، والبعث هو إحياء الله تعالى الموتى من قبورهم بعد جمع أجزائهم الأصلية بأن يجمعها الله تعالى بعد تفرقها أو بعد عدمها بالكلية على خلاف للعلماء في ذلك، ومحل هذا الخلاف في غير من نص الشارع على أن الأرض لا تأكل أجسادهم كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والشهداء والمؤذنين احتسابًا، وحامل القرآن والعلماء العاملين، والمتحابين في الله تعالى، وأول من يبعث من قبره سيدنا ومولانا محمد ﷺ كما أنه أول وارد لأرض المحشر وأول داخل الجنة، وبعد البعث يكون الحشر، وهو سوق الناس إلى أرض المحشر، وهي أرض بيضاء عفراء أي: ليست ناصعة البياض ليس فيها علم لأحد، أي: ليس فيها أثر ولا علامة لأحد؛ لأنها لم توطأ قبل ذلك، ومراتب الناس في الحشر مختلفة على حسب اختلاف أعمالهم، فمنهم الراكب ومنهم الماشي على رجليه أو على وجهه، وقد أخرج البخاري ومسلم عنه ﷺ أنه قال: «إنكم تلاقون الله حفاة عراة غرلاً - بضم الغين المعجمة وإسكان الراء جمع أغرل وهو: الذي لم يقع له ختان- قالت عائشة رضي الله عنها فقلت: الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذلك». وفي رواية: «إنكم تحشرون حفاة عراة غرلاً، ثم قرأ ﷺ: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٤)، وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم، وإن أناسًا من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي، أصحابي، فيقال:

PDF Compressor Pro

إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح - سيدنا عيسى عليه السلام : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ الْحَكِيمُ ﴾. وكسوة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أولاً مثوبة له لأنه أول من سن لبس السراويل؛ ولأنه جرد في الدنيا من ملابسه حين ألقي في النار. قال العلماء: وإن كانت كسوته أولاً فكسوة سيدنا محمد ﷺ بعده أجود من كسوته كما ورد ذلك في الأحاديث، قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ ﴾ قل لهم: يا محمد أيضًا: ﴿ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ ﴾ عن الصراط السوي، الذاهبون مذهب الإشراك والكفر ﴿ الْمُكَذِّبُونَ ﴾ لله تعالى ولرسله الكرام في البعث والنشور، وفي الصحيح قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى: «يشتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني، ويكذبني وما ينبغي له، أما شتمه فقوله: إن لي ولدًا، وأما تكذيبه فقوله: ليس يعيدني كما بدأني ﴿ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ أي: لمبعوثون ومجموعون إلى ميقات يوم معلوم، وداخلون جهنم وآكلون فيها من الزقوم وهو: أخبث الشجر وأمره. قيل: إنه ينبت في الدنيا في أرض تهامة، وفي الآخرة في سواء الجحيم، لا تقبله النفوس ولا تستسيغ أكله، وإنما يأكله هؤلاء الأشقياء لفرط جوعهم وشدة اضطرارهم للأكل ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا ﴾ أي: من هذه الأشجار الكريهة الخبيثة ﴿ الْبُطُونَ ﴾ أي: بطونهم جميعًا ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ ﴾ على هذا المأكول من الزقوم ﴿ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾ الماء الشديد الحرارة شربًا كثيرًا متتابعًا مع قلة الجدوى وعدم ذهاب العطش، وهل الحميم يزيل عطشًا أو يذهب أوامًا؟ ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ أي: كشرب الإبل التي أصابها الهيام، وهو داء يصيب الإبل، فيلهب أجوافها

حتى تشرب فلا تروى أبداً ﴿ هَذَا ﴾ الذي سبق ذكره من الزقوم والحميم ﴿ نُزُلُهُمْ ﴾ الذي هيئ لهم في جهنم: وأصل النزل ما يهيأ للضيف في أول قدومه. فتسمية طعام الزقوم وشرب الحميم في جهنم نزلاً من باب التهكم وفيه إشارة إلى أن هناك من أنواع العذاب ما هو أعظم من ذلك ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ يوم الجزاء على الأعمال. ثم وجه الله تعالى الخطاب إلى هؤلاء المنكرين حيث قال: ﴿ نَحْنُ ﴾ بما لنا من العظمة والجلال ﴿ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ أوجدناكم من العدم ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ فهلا تصدقون بالبعث والإحياء بعد الموت؟ لأن من قدر على البدء قدر على الإعادة بلاشك، فكما أنشأناكم من العدم إلى الوجود كذلك ننشئكم بعد موتكم، ونبعثكم من قبوركم. وهذا أحد أدلة البعث، ويسمى قياس الإعادة على الابتداء، ومنها قياس الإعادة على خلق السماوات والأرض قياس أولوية، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ (يس: ٨٢)، ومنها قياس الإعادة على إخراج النبات من الأرض بعد موتها وهو المشار إليه بقوله عز وجل: ﴿ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (الروم: ١٩) ومنها غير ذلك على ما سيأتي في المقال الآتي إن شاء الله تعالى.

ويؤخذ مما سبق الأمور الآتية:

١- إن الترف الموجب للعذاب إنما هو الترف المصحوب بنسيان الآخرة والإعراض عن الله تعالى وعدم المبالاة بما وضعه من الحدود، وأما التجمل والتنعم بالملاذ مع أداء ما وجب من الحقوق، والقيام بشكر الله تعالى من غير إفراط ولا إسراف فلا بأس به ولا ضرر فيه.

PDF Compressor Pro

٢- إن الشرك بالله تعالى لا يجوز غفرانه من غير توبة، وصاحبه مخلد في النار قطعًا، وأما غيره من المعاصي - كبيرة كانت أو صغيرة- فهو إلى الله تعالى، إن شاء عاقب به وإن شاء عفا عنه، فمن مات على الإيمان وهو مرتكب للمعاصي من غير أن يتوب منها فأمره مفوض لربه، هذا مذهب أهل السنة والجماعة.

٣- إن الكافرين بمعزل عن شفاعة الشافعين فلا تكون فيهم ولا تقبل فيهم شفاعة. ولهذا يقول ﷺ في القوم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال كما مر في الحديث، وهم الذين كانوا قد آمنوا به عليه الصلاة والسلام ثم ارتدوا بعد ذلك في زمن أبي بكر رضي الله عنه: «أصحابي أصحابي» فإذا ما قالت له الملائكة بيانًا لحالهم «إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم» يتخلى عنهم ويقول كما قال المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ (المائدة: ١١٧) ...إلخ ، وفي بعض روايات الحديث أنه يقول: «سحقًا سحقًا» أي: هلاكًا هلاكًا لهم. والأدلة على أن الكافر لا تنفعه شفاعة، متضافرة في الكتاب والسنة.

٤- إن هذه الحياة التي نحن فيها والتي أشربها في قلوبهم الغافلون لابد لها من نهاية، ولابد أن يبعث الله الخلق ويجمع الأولين والآخرين يوم القيامة لمحاسبتهم على ما صدر منهم من الأعمال ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة: ٧،٨) ثم يستقرون بعد ذلك إما في الجنة، وإما في النار.

٥- إن القياس دليل من الأدلة الشرعية وطريق من طرق العلم، وإن تفكر الإنسان في نشأته ومبدأ خلقه من أعظم أسباب السعادة والخير. والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ *
نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ
أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ
فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ
الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ
* بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ
أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا
تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ
نَحْنُ الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ
بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ * فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ
تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا
الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ صدق الله العظيم

سورة الواقعة [الآيات:٥٨-٨٠]

توحيد الصانع جل وعلا، والإيمان بالبعث والنشور أمران خطيران، بل هما جوهر الدين، وأساسه المتين؛ إذ يترتب على اعتقادهما والتصديق بهما صلاح المعاش والمعاد، ومن ثم تواطأت عليهما الشرائع، واتفق في

PDF Compressor Pro

الدعوة إليهما والحض عليهما سائر المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولقد أولاهما القرآن الكريم أعظم عناية، فكرر الاستدلال عليهما في غير موضع، وأعاد القول فيهما بأساليب متنوعة وضروب مختلفة، ليستقر أمرهما في النفوس ويرسخ في الأذهان، وتنتفي عنهما جميع الشكوك والشبهات، منها ما سبق في الصفحات السابقة، ومنها ما تراه الآن أيها القارئ الكريم وهو قوله تبارك وتقدس: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾ أي: أخبروني أيها الجاحدون المشركون بالله تعالى، المنكرون للبعث والنشور، عن حال الماء الذي تمنونه وتقذفونه في أرحام النساء عند الوقاع ﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ أي: تقدرونه وتنقلونه في أطواره المختلفة وأشكاله العجيبة من نطفة إلى علقة إلى مضغة، ثم تحويل المضغة إلى عظام، ثم كسوة العظام لحمًا، ثم إنشائه بعد ذلك بنفخ الروح فيه خلقًا آخر وبشرًا سويًا، مشتملاً من عجائب الخلق وبدائع التصوير على ما تتحير فيه الأفكار وتندهش له العقول، تأمل في القلوب وفي الألسن والأسماع والأبصار وما أودع فيها من العجائب والغرائب، ثم أمعن النظر في سائر الجوارح والأعضاء وتسويتها وتهيئتها لما خلقت له على أحسن وجه وأتم نظام، حتى صار هذا المخلوق الصغير متمكنًا من الأفعال البديعة والصنائع المختلفة والمخترعات العظيمة المدهشة ﴿ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ له وحدنا ومن غير مشاركة غيرنا في شيء من ذلك. والمقصود تقرير المشركين منكري البعث بهذا لتقوم عليهم الحجة وينفحموا ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا ﴾ قضينا وأوجبنا ﴿ بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾ وكتبناه عليكم جميعًا لا فرق بين غني وفقير، وجليل وحقير، وسوقة وملوك، فقد

PDF Compressor Pro

كتبنا الموت على الجميع فلا مهرب لأحد منه، ولا فرار لمخلوق كائنًا من كان ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ (آل عمران: ١٨٥) في وقت معين وزمن مخصوص لا يتجاوزه ولا يتعداه، فكم من فتى حديث السن في عنفوان قوته وريعان شبابه، وطول أمله وعظمة ملكه واتساع جاهه، وكثرة أجناده وخدمه وحشمه، قد حضره أجله ونزلت به أسباب الموت، ولو اجتمع الخلق كلهم على إطالة عمره ما قدروا أن يؤخروه لحظة واحدة، وكم من شيخ ضعيف هو في الحضيض من ضعف البدن وتهدم القوى، واضطراب المزاج قد عمر وعاش زمنًا طويلاً حتى سئمه العيش ومله الثواء؟ ولو اجتمع الخلق على تقصير عمره ثانية واحدة لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فهل من قدر على ذلك كله، وقهر الخلق جميعًا بالموت على هذه الصورة، يعجز عن بعثكم وإعادتكم للحياة بعد الموت؟ كلا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ لسنا عاجزين ولا مغلوبين ﴿ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ﴾ جمع مثل - بكسر الميم وسكون المثلثة- أي: لسنا عاجزين عن أن نعدمكم ونخلق أقوامًا غيركم مماثلين لكم في الخلقة، ومشابهين لكم في التصوير، كما قال عز شأنه في آية أخرى: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ (النساء: ١٣٣) أو هو جمع مثل - بفتحتين- وهو الصفة، أي: لسنا عاجزين عن أن نغير صفاتكم التي أنتم عليها وهيئاتكم التي أوجدناكم فيها ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من الصفات والهيئات.

وعن الحسن رضي الله عنه قال: نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بأقوام غيركم من قبل ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ﴾ أيها المخاطبون علمًا لاشك ولا لبس فيه ﴿ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ ﴾ يصح أن يكون المراد بها نشأة أبينا آدم عليه الصلاة

PDF Compressor Pro

والسلام، وهي النشأة الترابية وأمرها من العجب ما لا يخفى، أو أن يكون المراد بها نشأة المخاطبين أنفسهم وهي النشأة النطفية التي مر ذكر أطوارها قريبًا، فإن في كل من هاتين النشأتين آيات ساطعة ودلائل قاطعة على قدرته تعالى على النشأة الآخرة والحياة الثانية؛ لأن من قدر على البدء قدر على الإعادة من باب أولى ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فهلا تذكرون ذلك وتتأملون فيه لتعتبروا وتتعظوا وتتركوا المكابرة والعناد؟ كما في الخبر «عجبًا كل العجب للمكذب بالنشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى، وعجبًا للمصدق بالنشأة الآخرة وهو يسعى لدار الغرور» ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ أي: البذر الذي تلقونه في الأرض بعد حرثها وتهيئتها ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ ﴾ فتنبتونه وتخرجونه من الأرض ﴿ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ المنبتون له وحدنا لا أنتم ولا بمشاركتكم ومعاونتكم، فالإنسان يلقي البذر في الأرض والله تعالى هو المنبت.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يقولن أحدكم زرعت ولكن ليقل: حرثت»، ثم قال أبو هريرة: ألم تسمعوا الله تعالى يقول: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ يريد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ هذا النهي من هذه الآية الكريمة؛ لأن الله تعالى أسند فيها الحرث للإنسان، والزرع لذاته العلية. وحينئذ فضعف الحديث المذكور الذي صرح به بعضهم مجبور باستناده إلى هذه الآية، والظاهر أن النهي فيه للتنزيه فقط لا للتحريم والله أعلم.

قالوا: ومما جرب لدفع آفات الزرع وصحة إنتاجه أن يقول الإنسان بعد الاستعاذة وتلاوة هذه الآية الكريمة: الله تعالى الزارع والمنبت والمبلغ، اللهم صل على محمد، وارزقنا ثمره وجنبنا ضرره، واجعلنا لأنعمك من

PDF Compressor Pro

الشاكرين . ﴿ لَوْ نَشَاءُ ﴾ أن نجعله حطامًا بعد أن أنبتناه وأخرجناه من الأرض، وأبلغناه الغاية المرجوة منه بحيث طمعتم في حيازة غلته وثمرته ﴿ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ أي: متحطمًا متكسرًا، لا نفع فيه ولا فائدة لآدمي أو غيره ﴿ فَظَلْتُمْ ﴾ حينئذ من هذا ﴿ تَفَكَّهُونَ ﴾ أي: تتعجبون وتستغربون ما حصل له من التحطم والتكسر بعدما كان على أحسن حال وأتم بهجة، وقيل: تفكهون تندمون على ما بذلتم فيه من جهد وغرمتم فيه من نفقة بدون جدوى ولا حصول منفعة منه. قيل: والتفكه في الأصل إلقاء الفاكهة من اليد وهو لا يكون من الشخص إلا عند إصابة الأمر المكروه ، فتفسير ﴿ تَفَكَّهُونَ ﴾ يتندمون على هذا تفسير باللازم ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ أي: تقولون في أنفسكم، أو يقول بعضكم لبعض عند معاينة تلك الحالة السيئة: إنا لمهلكون؛ لأن الغرام هو الهلاك، ومنه ﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ (الفرقان: ٦٥) أي: هلاكًا. وإنما قالوا ذلك لما غلب عليهم من أن فساد زرعهم وهلاك رزقهم فيه حتفهم وهلاكهم. وقيل: معنى ﴿ مُغْرَمُونَ ﴾ ملزمون غرامة بسبب ما نقص من أرزاقنا وغلاتنا ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي: كتب علينا الحرمان، وقدر علينا ضيق الرزق، فلا حظ، ولا بخت لنا أصلاً، وهذا إضراب عن قولهم السابق : إنا لمغرمون، إلى ما هو أمضى منه وأدل على نكد العيش وسوء الطالع ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ ﴾ العذب الفرات ﴿ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ وتنتفعون به في معاشكم وسائر شئونكم، وإنما اقتصر القرآن الكريم على ذكر الشراب؛ لأنه أهم منافع الماء ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾ وهو السحاب مطلقًا أو خصوص الأبيض منه أو المملوء بالماء خاصة ﴿ أَمْ

﴿ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ له بقدرتنا ومحض مشيئتنا من غير أن يكون لكم مدخل فيه، وكون الماء منزلاً من السحاب لا خلاف فيه وإنما الخلاف في ماء السحاب هذا، هل هو نازل من السماء حقيقة؟ وهو ما تدل عليه ظواهر الآيات الكريمة أو هو صاعد من الأرض؟ لأنه عبارة عن الأبخرة المتصاعدة من البحار؟ وهو ما عليه أهل الهيئة، أوجمع بعض المحققين بأن البعض نازل من السماء والبعض الآخر صاعد من البحار، وهذا جمع حسن لا بأس به ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ مرًّا مالحًا لا يذاق ولا يطاق ﴿ فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴾ فهلا تشكرون الله تعالى على هذه النعم الجليلة وهي نعمة الخلق والإيجاد، ونعمة إنبات الحرث، ونعمة عذوبة الماء؟ وإنما حذفت اللام هنا في جانب الماء حيث قيل: ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ وأثبتت في جانب الحرث فقيل ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ اختصارًا؛ لأن ذكرها أولاً يكفي عن إعادتها ثانيًا، وقيل: لأن أصلها للتأكيد وهو أنسب بالمطعوم؛ لأنه مقدم في الوجود والرتبة على المشروب، ألا ترى أن الإنسان يحتاج للماء بعد الأكل، والضيف يطعم أولاً ثم يسقى بعد ذلك؟ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ تخرجونها من الشجر وتقدحونها ﴿ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ ﴾ أوجدتم وأبدعتم ﴿ شَجَرَتَهَا ﴾ المعهودة وهي المسماة بالمرخ والعقار ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ لها على ما في ذلك من الغرابة الفائقة الدالة على قدرة الله تعالى وبديع حكمته حيث جمع في هذه الشجرة بين الماء والنار، وفي هذا أعظم دلالة على قدرته عز وجل على البعث وإنشاء الخلق مرة أخرى ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا ﴾ أي: أوجدنا هذه النار وربطنا بها أسباب معاشكم لتكون ﴿ تَذْكِرَةً ﴾ لنار

PDF Compressor Pro

جـهنم التي أوعـد الله تعالى بـها المخالفين فـتبـتعدوا بسبب ذلك عن المعاصـي، وتنزجروا عن المخالـفات. وقد قـال ﷺ: «إن ناركم هذه التي توقدون، جزء من سبعين جزءاً من نار جـهنم». وكان كثير من السلف ﷺ جميعًا يقرب أحدهم يده من النار، ثم يقول لنفسه: إذا لم تطيقي حر هذه النار وهي دون نار جهنم بكثير، فكيف تطيـقين نار جهنم وكيف تصبرين على عذابهـا؟ وقيل: إن المعنى جعـلناها تذكرة لأمر البـعث؛ لأن من قدر على إخراج النار من الـشجر الأخـضر المضاد لهـا كان قادراً على إحـياء الموتى من قبورهم . ﴿ وَمَتَاعًا ﴾ منفعة ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ أي: النازلين في القواء وهي: القفار والصحارى الجرداء، وخصهم بالذكر؛ لأن احتياجهم إليها أشد وانتفاعهم بها أكثر من المقيمين في المدن والأمصار.

وقيل: المقـوون هم المسافـرون فإنهم يحـتاجـون إليها وإلـى إيقادها لتهرب منهم السباع ويهتدون بها إلى السبيل. وقيل: المقوون هم المنتفعون بهـا من الناس جـميـعًـا حـاضرهم وبـاديهم، ومسـافـرهم ومـقيـمـهم، يستـضيـئون بها في الـظلام، ويهتدون بهـا في السبل، ويصطلـون بها من البـرد، وينتـفـعون بـهـا في الطـبخ والخبـز وغـيـر ذلك . ولما كـانت هذه المذكـورات من خلق الإنسـان من النطفـة، وإخراج النبـات من الأرض، وإنزال الماء من الـسحاب، وإخـراج النار من الشجـر الأخضـر، وجعلهـا تذكرة ومـتاعًـا للناس أجمـعين من أعظم نعم اللـه تعالى عـلى الإنسان، ومن أقوى الأدلـة على وحدانيـته عـز وجل، واتصـافه بصـفات الجـمال والكمال، ناسب أن يأمـرنا الحق سبحانه وتعـالى عقب تعدادها بالتسـبيح فقـال: ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ أيها الإنسان المغمـور بهذه النعم الجليلة، المشاهد لها

PDF Compressor Pro

في كل وقت وحين ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ الباء صلة للتأكيد، أي: سبح اسم ربك العظيم بمعنى نزهه عن كل ما لا يليق به من النقائص والعيوب، وإذا وجب التنزيه لأسمائه تعالى كان لذاته وصفاته أوجب، ويكون هذا التنزيه بأن نعترف له تعالى بهذه النعم، ونشكره عليها بأداء الواجبات وترك المخالفات، ونقر من أعماق نفوسنا بأنه هو وحده الموجد لها والمتفضل بها، وهي في قبضته وتحت سلطان قدرته وإرادته، ومن هنا ما أورده الحافظ السيوطي في الدر المنثور وغيره عن الإمام علي رضي الله عنه وكرم وجهه أنه قام يصلي بالليل فمر في قراءته بهذه الآية ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ فقال: بل أنت يارب ثلاثًا، ثم قرأ: ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ ﴾ فقال: بل أنت يارب ثلاثًا، ثم قرأ ﴿ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾ فقال: بل أنت يارب ثلاثًا. ثم قرأ ﴿ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا ﴾ فقال: بل أنت يارب ثلاثًا. ولا ريب في أن من اعترف لله تعالى بذلك وأذعن به في قرارة نفسه، وصل إلى حقيقة التوحيد، وسهل عليه سبيل التوكل على الله تعالى، فيصير غنيًا بالله غير مفتقر إلى شيء سواه، وهذا هو السر في أن المواظبة على هذه السورة الكريمة كل ليلة من أسباب حصول الغنى وزوال الفقر والله أعلم.

ثم بين الله تعالى عظم شأن القرآن وفخامة قدره وكثرة منافعه فقال: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾...إلخ المشهور أنَّ (لا) صلة زيدت للتأكيد على حد قوله تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ (الحديد: ٢٩) أي: ليعلم أهل الكتاب. وقيل: إنها للنفي والمنفي محذوف يؤخذ من المقام، أي: فلا صحة لما يقوله الكافرون الجاحدون في شأن

القرآن الكريم من أنه سحر أو شعر أو كهانة، أقسم بمواقع النجوم...إلخ. أو المنفي هو الفعل المذكور، والمعنى فلا أقسم بمواقع النجوم على عظم شأن القرآن وكثرة منافعه؛ لأن ذلك من الوضوح، بحيث لا يحتاج إلى قسم أصلاً، فضلاً عن هذا القسم العظيم ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ أي: نجوم السماء ومواقعها، مساقطها ومغاربها، وتخصيص ذلك بالقسم لما في غروبها وسقوطها من الدلالة على أنها متغيرة زائلة لا تليق للألوهية ولا تصلح للعبادة، وأنه لابد لها من فاعل مؤثر حكيم هو الذي أوجدها وأوجد سائر المخلوقات، أو لأن غروبها هو وقت التجليات الإلهية والنفحات الربانية كما يدل على ذلك حديث: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفر لي فأغفر له». والمراد بنزول الرب تعالى: نزول رحمته وتجليه الخاص بهذا الوقت، ولهذا كان للعبادة فيه شأن عظيم، وقلما أفلح مريد وهو يغفل عن هذا الوقت، وجعل أهل الطريق القيام فيه من ضروريات السير إلى الله تعالى، وعده أبو البركات الدردير في تحفة الإخوان أحد أصول الطريق الستة التي لا يتيسر التمسك بالتقوى على الوجه الأكمل، ولا يتحقق السير على الوجه المطلوب إلا بها، وهي:

١- الجوع والمراد به تقليل الأكل بقدر الإمكان.

٢- العزلة عن الخلق، يعني الغافلين منهم أي: عدم كثرة الاختلاط بهم من غير ضرورة كبيع أو شراء أو نحو ذلك.

٣- الصمت ظاهرًا وباطنًا، أي: بالقلب واللسان إلا عن ذكر الله تعالى، وما لابد منه لصلاح المعاش.

PDF Compressor Pro

٤- السهر للذكر والفكر، وأقله من ثلث الليل الأخير إلى طلوع الشمس.

٥- الاقتصار على الذكر الذي لقنه له أستاذه، والمواظبة عليه بقدر الطاقة.

٦- اتخاذ الشيخ العارف البصير بعيوب النفس، الذي سلك طريق القوم وعلم ما فيها، وتمكن من معرفة الأحكام الشرعية والأحوال الباطنية، والله أعلم.

﴿ وإِنَّهُ ﴾ أي: القسم بمواقع النجوم ﴿ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: لو كنتم من ذوي العلم والإدراك الصحيح ﴿ عَظِيمٌ ﴾ عظيم الشأن جليل المقدار لكونه صادراً من الله تعالى العلي العظيم، ولعظم المقسم به وهو مواقع النجوم على ما سبق بيانه. والقسم عليه هو قوله: ﴿ إِنَّهُ ﴾ ما يتلوه محمد ﷺ، ويقص عليكم سوره وآياته ﴿ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ أي: شريف عزيز؛ لأنه كلام الله تعالى المعجز للبشر، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. أو كثير الفوائد، جم المنافع؛ لأنه مشتمل على خيري الدنيا والآخرة، وصلاح المعاش والمعاد، فيه حفظ كيان الأمم، وتنظيم جماعة البشر، وتحصيل منافع العباد، وتحقيق سعادتهم في العاجل والآجل، وما من طالب إلا ويجد فيه طلبته من فقيه وحكيم وأديب ومهندس وطبيب...إلخ ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ أي: في مكتوب مصون عن التحريف والتغيير والتبديل وهو المصحف ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ أي: الذين تطهروا من الحدث الأكبر والأصغر، فهذا دليل على أن المحدث لا يجوز له مس المصحف، وقد صرح الفقهاء بأن المحدث لا يجوز له مس المصحف، سواء كان المس لنفس الكتابة أو لما بين أسطره أو

PDF Compressor Pro

لأطراف ورقه أو لجلده. وسواء كان مسه بعضوه مباشرة أو بحائل أو بعود في يده، حيث كان مكتوبًا بالخط العربي أو الكوفي لا بالخط العجمي كالفرنسي والإنجليزي؛ لأن هذا في هذه الحالة ليس قرآنًا وإنما من قبيل التفسير، وكما لا يجوز مس المصحف للمحدث لا يجوز له أيضًا حمله، ولو بنحو منديل أو خيط، أو كرسي أو وسادة بأن حملهما وفوقهما المصحف. وكذلك كتابته كلاً أو بعضًا إلا الشيء اليسير كآيتين أو ثلاث في ورقة مشتملة على وعظ كخطبة أو محاضرة أو استدلال ومثلها رسائل السلام (الخطابات) فلا بأس بكتابة الشيء اليسير منها من غير طهارة. وتجوز قراءتها ولو للجنب. وكذا كتب العلم والحديث المشتملة على الآيات اليسيرة تجوز قراءتها ومسها وحملها ولو للجنب لكن مع الكراهة. قال العلامة الألوسي: ولا ينحصر الاعتناء - يعني بشأن القرآن- في منع غير المتطهر من مسه؛ بل يكون بأشياء كثيرة كالإكثار من تلاوته والوضوء لها، وألا يقرأه الشخص وهو متنجس الفم، فإنه مكروه، وقيل: حرام كالمس باليد المتنجسة، وكون القراءة في مكان نظيف، والقارئ مستقبل القبلة متخشعًا بسكينة ووقار مطرقًا رأسه، والاستياك لقراءته، والترتيل والتدبر والبكاء أو التباكي، وتحسين الصوت بالقراءة، وألا يتخذه معيشة، وأن يحافظ على ألا ينسى آية أوتيها منه، فقد أخرج أبو داود وغيره: «عرضت عليّ ذنوب أمتي فلم أر ذنبًا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها»، وألا يجامع بحضرته فإن أراد ستره، وألا يضع غيره من الكتب السماوية وغيرها فوقه، وألا يقلب أوراقه بأصبع عليها بزاق ينفصل منه شيء، فقد قيل: يكفر من يفعل ذلك، إلى أمور أخرى مذكورة في محالها اهـ.

وقد اختلف العلماء في ﴿ لا ﴾ من قوله تعالى: ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ على أن الضمير راجع للمصحف كما قلنا، فقيل: إنها خبرية ومعناها النهي، وإنما لم يجعلوها باقية على خبريتها لما يلزم على ذلك من الخلف في خبره تعالى؛ لأن كثيراً من الناس يمس المصحف وهو غير متطهر، والخلف في خبره تعالى محال. وقيل: إنها ناهية والفعل مجزوم بسكون مقدر على آخره منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة الإدغام، وإنما حرك بالضم إتباعًا بحركة الهاء. ويصح أن يكون المراد بالكتاب المكنون اللوح المحفوظ، وعلى هذا فيكون المراد بـ ﴿ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ الملائكة الكرام؛ لأنهم مطهرون من الأقذار المعنوية، وحينئذ فـ (لا) للنفي وهي باقية على خبريتها، والمعنى لا يمس اللوح المحفوظ إلا الملائكة الكرام عليهم الصلاة والسلام، فهم الذين يمسونه ويطلعون عليه دون من سواهم من عامة البشر، وقلنا من عامة البشر احترازاً عن الخواص كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكذلك بعض الأولياء بطريق الوراثة والتبع، وقد أنكر العلامة الألوسي اطلاع الأولياء على اللوح المحفوظ ونصه: «وإذا كانت هذه الجملة صفة للكتاب المكنون المراد منه اللوح المحفوظ ، وأريد بالمطهرين الملائكة عليهم السلام، كان في ذلك رد على من يزعم أن الأولياء يرون اللوح المحفوظ ويطلعون على ما فيه. وحمل المطهرين على ما يعم الملائكة والأولياء الذين طهرت نفوسهم وقدست ذواتهم حتى التحقوا بالملائكة عليهم السلام، لا ينفع في البحث مع أهل الشرع، فإن مدار استدلالاتهم على الأحكام الشرعية الظواهر، على أنه لم يسمع عن

PDF Compressor Pro

النبي ﷺ - وهو هو - أنه نظر يومًا وهو بين أصحابه إلى اللوح المحفوظ، واطلع على شيء مما فيه، وقال لهم: إني رأيت اللوح المحفوظ، واطلعت على كذا وكذا فيه، وكذلك لم يسمع عن أجلة أصحابه الخلفاء الراشدين أنه وقع لهم ذلك، وقد وقعت بينهم مسائل اختلفوا فيها وطال نزاعهم في تحقيقها إلى أن كاد يغم هلال الحق فيها، ولم يراجع أحد منهم لكشفها اللوح المحفوظ. وذكر بعض العلماء أن سدرة المنتهى ينتهي علم من تحتها إليها، وأن اللوح فوقها بكثير، وبكل من ذلك نطقت الآثار وهو يشعر بعدم اطلاع الأولياء على اللوح، ومع هذا كله من ادعى وقوع الاطلاع فعليه البيان وأنى به» إلى أن قال: «ولا تظنن أن نفي رؤيتهم للوح المحفوظ نفي لكراماتهم الكشفية وإلهاماتهم الغيبية، معاذ الله تعالى من ذلك، وطرق إطلاع الله تعالى من شاء على ما شاء من علمه غير منحصر بإراءته اللوح المحفوظ، ثم إن الإمكان مما لا نزاع فيه، وليس الكلام إلا في الوقوع، وورود ذلك عن النبي ﷺ وأجلة أصحابه كالصديق والفاروق وذي النورين، وباب مدينة العلم رضي الله تعالى عنهم أجمعين والله تعالى أعلم» اهـ.

ومع أن مسألة اطلاع الأولياء على اللوح المحفوظ ليست ذات أهمية كبيرة، ولا هي من الأمور الضرورية في الدين إثباتًا أو نفيًا، فإننا لا نرى بأسًا من إبداء الملاحظات الآتية على كلام هذا العلامة، وللقارئ بعد ذلك أن يختار لنفسه ما يحلو:

١ - إن عدم السماع - على فرض تسليمه - عن النبي ﷺ وأجلة أصحابه رضي الله عنهم بأنهم اطلعوا على اللوح المحفوظ لا ينفي أصل الاطلاع كما

PDF Compressor Pro

لا يخفى، لجواز أنهم اطلعوا ولم يخبروا بذلك لعدم وجود ما يدعو إلى الإخبار ويضطر إليه كما هو الشأن في عامة المكاشفات التي تقع للخواص، ومن المقطوع به أن النبي ﷺ لم يتحدث بكل ما وقف عليه من المعارف والأسرار، على أن الله تعالى قد قال في شأن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (الأنعام: ٧٥) ومن ملكوت السماوات والأرض اللوح المحفوظ من غير شك. ومن المعلوم أن ما يراه الخليل لا يحجب عنه الحبيب المحبوب عليهما الصلاة والسلام، وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح: «ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيته في مقامي هذا». وهذا يتناول اللوح وغيره.

٢- ما هي العلاقة بين المسائل التي اختلفت فيها الصحابة وطال نزاعهم فيها رضي الله عنهم جميعًا، وبين اللوح المحفوظ حتى يراجعوه فيها، وهي مسائل شرعية بحتة مرجعها إلى الكتاب والسنة وما إليهما من أدلة الدين المعروفة؟ وما للمكاشفات ومسائل المعاملات؟ ومن الذي قال بجواز التعويل على الكشف وما في اللوح المحفوظ وترك العمل بالنصوص الشرعية؟ على أنه لو جاز ذلك لانعكس الأمر على هذا العلامة وانقلب المانع مقتضيًا، أو يحتمل أن يقال: إن اطلاع هؤلاء الأجلة على اللوح المحفوظ وعلمهم بواسطة ذلك أن ما وقع بينهم من الخلاف لابد من وقوعه هو الذي دعاهم إلى هذا الخلاف واقتضى وقوع النزاع بينهم.

٣- قد تواتر عن كثير من الأولياء أنهم اطلعوا على بعض ما في اللوح المحفوظ في مكاشفاتهم، فتكذيبهم في ذلك مع قيام القرائن الدالة

PDF Compressor Pro

على صدقهم، ومع أن إمكان هذا الأمر لا نزاع فيه- كما قال الألوسي نفسه- مما لا ينبغي صدوره خصوصًا ممن يثبت كراماتهم، ويصدق بإلهاماتهم ومكاشفاتهم.

٤- قد صرح الإمام الغزالي في أواخر الإحياء بأن الرؤيا المنامية عبارة عن رؤية القلب بعض الصور الموجودة في اللوح المحفوظ، فإذا ضممنا إلى هذا أن ما يقع في النوم للعامة لا يمتنع وقوعه في اليقظة للخواص؛ لأنه لم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسوسات- كما نبّه عليه الإمام الغزالي أيضًا في كتاب «عجائب القلب من الإحياء»- لم يبق محل للإنكار.

٥- يخيل إلينا أن قول العلامة الألوسي: إن الإمكان لا نزاع فيه مع ما ذكره قبل ذلك مقرًا له عن بعض العلماء من أن سدرة المنتهى ينتهي علم من تحتها إليها، وأن اللوح فوقها بكثير لا يخلو من تناف؛ لأنه متى ثبت في الشرع أن علوم من تحت سدرة المنتهى تنتهي إليها، ولا تجاوزها إلى ما فوقها، لم يبق محل لإمكان رؤية اللوح المحفوظ الذي هو فوقها كما قال؛ إذ الكلام في الإمكان الشرعي لا العقلي لعدم خفائه حتى يحتاج إلى التنصيص عليه، ثم القول بأن سدرة المنتهى إليها ينتهي علم من تحتها ليس على عمومه، ولا هو متفق عليه، وإنما رأي لبعض العلماء كما قال العلامة نفسه، وحينئذ لا تقوم به حجة على المخالف. على أن المسألة في ذاتها ليست ذات أهمية كبيرة كما قلنا آنفًا، ولا محتاجة إلى هذا البحث كله، ومدار الأمر في الواقع- كما هو معروف لدى أهل الشأن- ليس إلا على صفاء مرآة القلب، فهذه المرآة متى صفت وتهيأت

PDF Compressor Pro

على الوجه المطلوب أمكن أن ينطبع فيها ما شاء الله تعالى من معلومات اللوح المحفوظ وغيره على قدر صفائها واستعداد صاحبها، فالعارف في الحقيقة لا ينظر إلى نفس اللوح، وإنما ينظر مرآة قلبه فيرى فيها من عجائب الملك والملكوت ما لا تراه قلوب الغافلين وأعين المحجوبين والله يختص برحمته من يشاء.

هذا ومما يحسن التنبيه عليه في هذا المقام، أن جماعة ممن منعوا رؤية النبي ﷺ في اليقظة قد تشبثوا في هذا المنع بمثل ما تشبث به الألوسي هنا في منع رؤية اللوح المحفوظ حيث قالوا: لو كانت هذه الرؤية جائزة الوقوع لوقعت لمثل سيدنا علي، ومعاوية رضي الله عنهما ، ولو كان ذلك لرجعا إليه عليه الصلاة والسلام وحكَّماه فيما شَجَرَ بينهما من الخلاف، وانحسمت مادة النزاع.

والجواب عن ذلك هو الجواب عن كلام الألوسي بعينه، وخلاصته أن رؤية النبي ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى لا مدخل لها في مسائل التكليف والمعاملات، ولا تعلق لها بالأحكام الشرعية بحال، وإنما ذلك منوط بحياته الظاهرة والتلقي منه على الوجه المعتاد، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

***

PDF Compressor Pro

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ * فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ * فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ صدق الله العظيم

[سورة الواقعة : ٨١-٨٧]

فاتنا أن نتكلم في المقال السابق على الآية الأخيرة من الآيات الكريمة المنشورة بصدره وهي قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وهي واقعة في موقع الصفة للقرآن في قوله عز وجل: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾. وقوله: ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ أي: منزل شيئًا فشيئًا، فهو مصدر بمعنى اسم المفعول، وقلنا: منزل شيئًا فشيئًا؛ لأن هذا هو معنى التنزيل بخلاف الإنزال، فإنه ما نزل جملة واحدة، وقد نزل القرآن الكريم على النبي ﷺ منجمًا شيئًا فشيئًا، سورة سورة، وآية آية، وآيات آيات حتى استتم نزوله في مدى عشرين أو ثلاث وعشرين سنة. وكان نزول القرآن منجمًا بهذه الكيفية من جملة الأسباب التي استند إليها خبثاء المشركين- وهم يعلمون من قرارة نفوسهم أنها لا تصلح مستندًا لهم بحال- في تهويشهم وتشويشهم على القرآن

PDF Compressor Pro

الكريم وطعنهم فيه بأنه ليس من عند الله تعالى كما يقول محمد ﷺ ، وذلك أنهم كانوا يقولون - كما ذكره صاحب الكشاف في سورة البقرة - لو كان هذا القرآن من عند الله تعالى كما يزعم محمد، وكان حقيقة مخالفًا لكلام البشر، لم ينزل هكذا نجومًا سورة سورة، وآيات غب آيات على حسب النوازل والحوادث، وعلى نسق ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقًا حينًا فحينًا وشيئًا فشيئًا حسب ما يعن لهم من الأحوال المتجددة والحاجات السانحة، لا يلقي الناظم ديوان شعره دفعة، ولا يرمي الناثر بمجموع خطبه أو رسائله ضربة، فلو أنزله الله تعالى حقيقة لأنزله بخلاف هذه العادة جملة واحدة، كما حكي الله تعالي ذلك عنهم بقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (الفرقان:٣٢)، وقد رد عليهم الحق جل شأنه ببيان الحكمة في هذا التفريق حيث قال: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: نزلنا القرآن كذلك مفرقًا ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (الفرقان:٣٢،٣٣) فذكر ثلاث حكم لنزوله مفرقًا:

١- تثبيت فؤاده ﷺ وتقوية قلبه الكريم؛ لأنه لو نزل جملة واحدة لصعب عليه وما حملته قواه البشرية.

٢- تيسير حفظه وفهمه عليه وعلى أمته، لأن التقسيم والتدريج- كما هو معلوم- أكبر معين على ذلك.

٣- بيان أحكام النوازل المتجددة والرد على شبه الكفار وأسئلتهم التي يوردونها كل يوم على النبي ﷺ بقصد الطعن في دينه والقدح في نبوته، فالمصلحة كلها والخير أجمع في نزول القرآن مفرقًا كما اقتضته مشيئته تعالى وحكمته العلية.

PDF Compressor Pro

وقوله تعالى: ﴿ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي: خالقهم ومالكهم ومربيهم بنعمه الجليلة، والعالمون هم الخلائق كلهم من إنس وجن وملك ودواب وغير ذلك، وهو جمع عالم مأخوذ من العلامة؛ لأنه علامة على وجود صانعه جل وعلا، وفي التصريح بقوله: ﴿ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فائدتان عظيمتان: الأولى: تكذيب الكفار في زعمهم أن القرآن إفك افتراه محمد ﷺ من تلقاء نفسه أو أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً، وقد أفحم الله تعالى أصحاب هذا الزعم الباطل في عدة مواضع من كتابه العزيز إفحامًا لا تقوم لهم ولا لأذنابهم بعده قائمة، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾(هود: ١٣)، وقال: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(البقرة: ٢٣) فلم يستطيعوا وهم فرسان الكلام وأرباب الفصاحة والبيان أن يأتوا بما يوازي أقصر سورة منه، كيف وهو تنزيل رب العالمين، ومعجز الخلائق أجمعين، حتى قال الحافظ السيوطي رضي الله عنه: وقد وقع لي أني استخرجت من آية واحدة منه مائة وعشرين نوعًا من أنواع البلاغة، وهي قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾(البقرة: ٢٥٧) الآية، قال: وقد أفردتها بتأليف، هذا علاوة على ما فيه من وجوه الإعجاز وضروب الكمال الأخرى من علم وأدب وفلسفة وتشريع وأنباء عن المغيبات وأخبار عن حوادث القرون الماضية، مع روعته التي تلحق قلوب سامعيه وعذوبته التي تحبب القارئ فيه، وما إلى ذلك مما استوفاه العلماء في محله.